الفصل الثالث

العناصر الشعوبية واتهاماتها للعرب ورد الجاحظ عليها

ونقصد بالعناصر الشعوبية هنا الأجناس التى كانت تتعايش داخل الأمة الإسلامية فى العصر العباسى ، وكانت تبدو من أشخاص منهم ميول شعوبية فى العصبية للجنس الذى ينتسبون إليه ، وتقليل من شأن الأمة التى انخرطوا تحت لوائها وهى الأمة العربية .

وبقدر تنوع الأجناس وتعددها داخل المجتمع الإسلامى فى العصر العباسى تنوعت وتعددت ألوان الشعوبية؛ ولهذا فقد كان الشعوبيون أصنافاً مختلفة منهم زنج ومنهم فرس ومنهم نبط، وقد صبغت شعوبية كل صنف من هؤلاء بصبغة خاصة [١].

وقد تناول الجاحظ هذه الألوان الشعوبية المختلفة بالدراسة فى مؤلفاته، ووضح أهم المعالم الظاهرة فيها، وطريقة الانحراف الشعوبى والاتهامات التى وجهوها للعرب والإسلام ، والخصال التى افتخروا بها على سائر الأمم.

شعوبية السودان

والجاحظ يقصد بالسودان أساسًا الزنج ومن إليهم من أهل النوبة والحبشة، وقد عقد كتابه فخر السودان على البيضان من أجلهم. أما أهل الهند والسند وسكان جزائر البحر الجنوبى، كسرنديب وزابج، ثم بعض القبائل العربية التى غلب السواد عليها كبنى سليم بن منصور ومن إليهم من أهل الحرة، فيطلق عليهم أيضًا السودان لمشاركة الأولين فى سواد البشرة[٢].

وبتتبع كتاب الجاحظ فى فخر السودان على البيضان يتضح بجلاء أن الجاحظ قصد إظهار جوانب شعوبية الزنج ومن إليهم من أهل النوبة والحبشة، وأما استشهاده على السودان ببعض الأمم الأخرى كالسند وبعض قبائل العرب على أنها من السودان، فليس ذلك إلا من الحجج التى يستند إليها

سودان الحبش والزنج للدلالة على انتشار اللون الأسود فى أغلب سكان الأرض، وأن السواد ليس قاصرًا فيهم.

كما يؤكد أن قصد الجاحظ فى كتابه هذا إظهار عصبية سودان الحبش والزنج دون غيرهم من الأمم، ما سنراه عند تحليلنا لكتابه فخر السودان على البيضان من تحامل الشعراء ذوى الأصول الحبشية على كل العرب دون استثناء، وتفاخرهم بأصولهم الحبشية، وتعييرهم كل العرب بما كان لملوكهم معهم فى الجاهلية من حروب ومواقف رأوا أنها تدل على قوتهم وعزتهم على العرب وقتذاك.

ولا شك أن الدافع الأقوى لتأليف الجاحظ كتابه فخر السودان على البيضان هو ما كان يراه للزنج من الخطر فى الحياة الاجتماعية العباسية[٣]، وقد أعقب وفاته بقليل نشوب ثورتهم التى دمرت الكثير من البلاد وهلك فيها عدد كبير من العباد[٤].

على أنه يمكن أن يكون من أسباب تأليف الجاحظ لكتاب يتحدث فيه باسم الحبش والزنج ، ويعدد فيه مآثرهم – رغبة الجاحظ فى تنبيه مجتمعه لما لهؤلاء القوم من صفات عالية ومزايا سامية شأنهم شأن الأجناس الأخرى التى يتكون منها مجتمعه والمشهود لها بالكفاءة والرفعة، وبهذا ينصرف عن الناس شعور الاحتقار الذى يجده كثير منهم فى النظر لهؤلاء القوم ، وبهذا يصبح كتاب الجاحظ عن فخر السودان على البيضان خطوة فى محاولة دمج عناصر الأمة بعضها ببعض شأن رسالته فى مناقب الترك، من خلال ذكر مزايا كل أمة، وإشعار الأمم كلها التى يتكون منها المجتمع الإسلامي بما فيها الزنج – أنهم شرفاء ولهم قدر ومكانة، ومن ثم يجب اتحادهم وصهر بعضهم ببعض، يقول فى ذلك الدكتور محمد توفيق حسين: "فالجاحظ إنما أكد لهذه الأجيال التى تكاد لا تحصى من أبناء البشر السود كرامتهم الإنسانية بنشر شيء من مناقبهم وفضائلهم .

وكل ماعدا هذا فى هذا الكتاب الصغير، قليل هين بالقياس إلى هـذا الهدف الإنسانى الكريم"[٥].

كما يردد الدكتور على أبو ملحم ما ذكره الدكتور محمد توفيق حسين نفسه فى أسباب تأليف الجاحظ مثل هذه الكتب عن أجناس الأمـة الإسـلامية فى عصره ، وذلك فى قوله: إن كتاب فخر السودان على البيضان "ينطـوى مع كتاب مناقب الترك فى الغاية التى يرمى إليها الجاحظ وهى التسوية بـين العرب وسائر الشعوب التى تشتمل عليها الدولة العباسـية والتقريـب بينهـا واستئصال الأحقاد من قلوب أبنائها، لتستطيع العيش بوئام وسلام. وهذه هـى القاعدة التى تقوم عليها سياسة بنى العباس والتى يؤيدها الجاحظ"[٦].

وإذا كنت أتفق مع مضمون ما يقوله الدكتور محمد توفيـق حسـين والدكتور على أبو ملحم حول أهداف الجاحظ من كتبه فـى أجنـاس الأمـة الإسلامية – إلا أننى أرى أن حرص الجاحظ على إيضـاح وجهـه نظـره فى العمل على جمع كلمة الأمة ووحدة أبناء عناصرها المختلفة كـان أشـد وأقوى فى بعض كتبه ورسائله كرسالته فى مناقب الترك عنه فى كتابه فخـر السودان على البيضان؛ وذلك لأن الجاحظ لم يذكر فى رسالته مناقب التـرك عند حديثه عن فضائل الأجناس المختلفة التى توجد فى مجتمعه ويتكون منها الجيش – أى عبارات تدل على انتقاص جنس لآخر، أو نيـل عنصـر مـن عنصر آخر إلا القليل، وتأتى الرسالة فى مجملها فيها إشادة بكل أجناس الأمة بغرض العمل على ألفتها ووحدتها[٧].

أما الأمر فى كتاب فخر السودان على البيضان فلم يتوقف على ذكر الجاحظ فيه لمزايا الزنج ومآثرهم، وإنما ذكر أيضًا فيه على لسانهم جوانـب من هجومهم على العرب، ومقارناتهم بين ما انتقصوه على العرب بما يرونه عندهم من فضائل وأمجاد، ذهابًا مع الاتجاه الشعوبى الفارسـى الـذى كـان طاغيًا على سائر الشعوبيات فى العصر العباسى الأول.

ولعل عدم عرض الجاحظ فى رسالته مناقب الترك أى ذكر لانتقادات بعض أجناس الأمة على بعضها الآخر – إلا القليل – يعود إلى الظرف السياسى الذى كتب الجاحظ فيه هذه الرسالة، فقد طلب منه الفتح بن خاقان كتابتها كما يفهم من مقدمتها تهدأة للشغب الناشئ بين أجناس الجيش والترك خاصة لكونهم العنصر الجديد الذى زاد عدده فى الجيش، وبدأ يصبح له كيان كبير فى الدولة على حساب المكانة التى كان يتبوأها أبناء الأجناس الأخرى كالعرب والفرس خاصة.

ولكن كتاب فخر السودان ترك الجاحظ فيه نفسه على طريقته فى عرض مفاخرات الأجناس وهجومهما على غيرها؛ لأن الظرف السياسى وقتها لم يكن بخطورة الأحداث نفسها التى صاحبت تأليف الجاحظ رسالته فى مناقب الترك ممثله فى الاضطرابات التى حدثت بين صفوف الجيش وخشى من تصاعدها وتزايدها، كما أن ثورة الزنج لم تكن قد أعلنت عن نفسها بعد، وكل ما فى الأمر أن الجاحظ يرصد نشاط هذه الجماعة وما أصبح لها من الخطر، وينبه المجتمع إلى ضرورة إدراك هذا الأمر، ثم إنه ليس مما يضر أن يذكر الجاحظ ما عند أبناء هذه الجماعة من ميول شعوبية وأبعاد هذه الميول وحيثياتها.

ثم إننا لا نستبعد أيضًا أن يكون من ضمن ما دفع الجاحظ لكتابة كتاب فخر السودان على البيضان إلى جانب العوامل السياسية التى ذكرناها – دوافع أخرى شخصية تتركز فى إشادة الجاحظ بمن ترجع أصوله إليهم، إن صح أن الجاحظ كان من أصول حبشية على حد زعم بعض الباحثين[٨].

وتبدو مظاهر الشعوبية الزنجية فى هذا الكتاب من خلال عرض الجاحظ بعض القصائد التى كتبها شعراء من أصول زنجية فى العصر الأموى يفخرون فيها على العرب بأمجادهم، ويُعرِّضون بما أصاب العرب من هزائم من قبلهم فى العصر الجاهلى.

ومن هؤلاء الشعراء الزنوج الحيقطان الذى يقول الجاحظ عنه: "وأما الحيقطان فقال قصيدة تحتج بها اليمانية على قريش ومضر، ويحتج بها العجم والحبش على العرب، وكان جرير رآه يوم عيد فى قميص أبيض وهو أسود فقال:

كأنه لما بدا للناس ... (*) حمار لف فى قرطاس

فلما سمع بذلك الحيقطان وكان باليمامة، دخل إلى منزله فقال هذا الشعر"(٩).

ثم يأخذ الجاحظ فى عرض أبيات الحيقطان فى فخره بنفسه وقومه الحبش ، ومن هذه الأبيات قوله :

لئن كنت جعد الرأس والجلد فاحم فإنى لسبط الكف والعرض أزهر

وإن سواد اللون ليس بضائرى إذا كنت يوم الروع بالسيف أخطر(١٠)

وإلى هنا يبدو الأمر كأنه هجاء شخصي بين جرير والحيقطان ، ومن حق الحيقطان أن يدافع عن نفسه أمام استصغار جرير شأنه. وأما الشي الذى انساق إليه الحيقطان ونؤاخذه عليه، فهو تهجمه على العرب وهجاؤه لهم، وفخره بالنجاشي الذى غزاهم وانخذلوا عنه، فتركوا مكة حين دخلها راغبًا فى هدم الكعبة، وقد صده الله عنها، أما أهلها فقد كانوا مستسلمين لمصيرهم أمام جيش أبرهة الكبير. يقول فى ذلك الحيقطان:

فإن كنت تبغى الفخر فى غير كنهه فرهط النجاشي منك فى الناس أفخر

غزاكم أبو يكسوم فى أم داركم وأنتم كقبض الرمل أو هو أكثر

وأنتم كطير الماء لما هوى له ببلقعة ، حجن المخالب أكدر

فلو كان غير الله رام دفاعه علمت وذو التجريب بالناس أخبر(١١)

(*) كلمة أسقطناها.

وتدهشنا تلك الجرأة من الحيقطان فى فخره بقومه الحبش، وتصعيد هجومه على العرب، ونحن مازلنا فى العصر الأموي الذى شاع عنه بين كثير من الباحثين[١٢] أن صوت الشعوبية فيه كان خافتًا بسبب أن الدولة الأموية كانت بالمرصاد لكل العناصر الأخرى – غير العربية – التى تحاول أن تظهر شيئًا من مكانتها.

ولعل ما يعرضه الجاحظ فى كتابه فخر السودان على البيضان من قصائد شعرية للحيقطان وأمثاله من الشعراء الزنوج فى العصر الأموي يجعلنا لا نتفق – إلى حد ما – مع هذه الأحكام عن خفوت صوت الموالى فى العصر الأموي ، وأن قبضة الدولة الأموية كانت مانعة من انفجار أى تيار شعوبى فيها.

فها هو ذا الحيقطان قد تجاوز كل الحدود فى تهجمه على العرب، ونرى فى باقى أبياته وأبيات غيره من شعراء الزنج، وشرح الجاحظ لها إلى أى مدى كانت الشعوبية الحبشية نشطة فى ذلك العصر، فهذا الشاعر وأمثاله يعبرون عما يداخل الزنج والحبش من إحساس بالفخر، ويدل شعرهم على ما يتناقله الحبش والزنج من موازنات بين الأمة التى ينتمون إليها بالنسب وبين الأمة التى ينتمون إليها سياسيًا.

كما نجد فى جرأة الشعراء السودان ذوى الأصول الحبشية فى الاعتزاز بنسبهم والتهجم على العرب ما يدل على أن الشعوبية الزنجية كانت أسبق فى ظهور معالمها من سائر الشعوبيات الأخرى كالشعوبية الفارسية والشعوبية النبطية.

وأسباب هذا عندي أن عددًا كبيرًا من سودان الحبش قد استقر بين العرب منذ العصر الجاهلى نتيجة جلبهم ضمن الجيوش التى غزت اليمن، و حاولت غزو الكعبة وهدمها، وقد سمى هؤلاء الأبناء .

وقد تعلم هؤلاء الأبناء اللغة العربية، ونشأ أبناؤهم فى البيئة العربية، واكتسبوا اللغة العربية ومهارة التعبير بها، وكان منهم –فى العصر الأموي– شعراء كالحيقطان، لم يجدوا صعوبة فى قول الشعر فى ذكر فخرهم وتهجمهم على العرب .

أما الفرس، فقد كانوا – بعد فتح بلادهم خلال عصر صدر الإسلام والعصر الأموي – فى حاجة إلى مزيد من الوقت حتى يمهروا فى العربية، وينشأ أجيال منهم يتقنونها ويكتبون فيها شعرًا يعبر عن اعتزازهم بأمتهم الفارسية التى ينتمون إليها، ويظهرون ما بقلوبهم من أحقاد على العرب.

إلى جانب أن صدمة الفتوحات وقوة الفاتحين قد ألجمت الفرس – وهم أمة عريقة – عن إخراج ما بداخلها من نفثات شعوبية حتى كان لهم ما أرادوا فى العصر العباسى حين ظهر من بينهم شعراء يتقنون العربية، وسمح لهم باحتياز المناصب الكبيرة فى الدولة والتى تمكنهم من رعاية الشعراء والأدباء ذوى الميول الشعوبية الفارسية.

والشيء الآخر الذى يلفت الانتباه فى كتاب فخر السودان على البيضان أن الجاحظ يشرح فيه القصائد التى يعبر فيها شعراء الزنج عن عصبيتهم وشعوبيتهم، ومن ذلك شرح الجاحظ لأبيات الحيقطان(١٣).

وشرح الجاحظ لأبيات الحيقطان وسنيح الشاعرين اللذين ينتميان لأصول حبشية فى الفخر بقومهما وهجومهما على العرب تعليله أن الجاحظ أراد أن يوضح ما فى شعرهما من ذكر رموز وحوادث يرى ضرورة شرحها حتى لا يستعصى على القارئ فهمها، إلى جانب أن الشعوبية الزنجية لم تتعدد فى عصره فيها المؤلفات من قبل من ينتمون إليها – خلاف الشعوبية الفارسية – وقد رأى أن يبسط أبعاد هجومها على العرب بشرحه لهذه القصائد؛ حتى يتسنى له ولأمثاله من حماة العروبة مواجهتهم ورد اتهاماتهم للعرب، إن لم يكن فى هذا الكتاب الذى كتب بلسانهم ، ففى كتب أخرى.

وبعد أن ذكر الجاحظ قصيدتى الحيقطان وسنيح وشرحهما وأبرز ما فيهما من شعوبية يعلو صوتها فى قصيدة الحيقطان، ويظهر هذا الصوت كالمستخفي فى قصيدة سنيح – ولكنه استخفاء لا يخفى على أهل النظر[١٤]–، بعد هذا يذكر الجاحظ حججًا أخرى يستند إليها سودان الزنج فى ادعائهم أنهم أفضل الأجناس وخير الناس، ومن ذلك: "قالوا: ونحن قد ملكنا بلاد العرب من لدن الحبشة إلى مكة، وجرت أحكامنا فى ذلك أجمع وهزمنا ذا نواس، وقتلنا أقيال حمير وأنتم (*) لم تملكوا بلادنا" [١٥].

وها نحن نرى أن الحبش يستندون فى تفضيلهم أنفسهم على العرب بصفحة التاريخ فى العصر الجاهلى، ومقارنه أحوالهم بأحوال العرب وقتها – شأن الشعوبية الفارسية – وقد فات شعوبي الحبش كما فات غيرهم من الشعوبيات وقتئذ أن العرب فى الجاهلية لم يكونوا أمة مجتمعة تحت حكومة واحدة، وقد كانوا فى مستوى بعيد عن الحضارة والعمران؛ ولذا لا يصح مقارنة حالهم فى الجاهلية بحال الأمم التى وصلت إلى درجة من الحضارة وتكوين الدولة بهيئاتها السياسية والعسكرية والاجتماعية.

ويعرض الجاحظ اتهامًا آخر للعرب من قبل الشعوبية الزنجية، وهو يتعلق بمسألة نكاح أبناء الزنج من نساء العرب، فيقول الجاحظ: "وقد قالت الزنج للعرب: من جهلكم أنكم رأيتمونا لكم أكفاء فى الجاهلية فى نسائكم، فلما جاء عدل الإسلام رأيتم ذلك فاسدًا، وما بنا الرغبة عنكم مع أن البادية مِنَّا ملأى ممن قد تزوج ورأس وساد، ومنع الزمار، وكَنَفَكُم العدو"[١٦].

ولا شك أن اعتراض الزنج هنا فى رفض كثير من العرب بعد الإسلام أن يزوجوا بناتهم وأخواتهم من أبناء الزنج – له ما يبرره، فالإسلام قد سوى بين كل الناس، وجعل أفضل الناس أتقاهم لا أعزهم نسبًا وأكثرهم

(*) يقصد العرب.

حسبًا، ولا شك أن عصر بنى أمية الذى فجَّر العصبيات والعنصريات كان من نتائجه مثل هذه الانحرافات عن نهج الإسلام ، مما أعطى للعناصر التى كان يتكون منها المجتمع الإسلامى وقتذاك الحافز لإظهار شعوبيتها على العرب، والإسلام أيضًا.

ويستمر الجاحظ فى عرض حجج الزنج فى زعمهم بأنهم أفضل من العرب، فيقول بلسانهم موجهين كلامهم للعرب: "وقد ضربتم بنا الأمثال وعظمتم أمر ملوكنا، وقدمتموهم فى كثير من المواضع على ملوككم ، ولو لم تروا الفضل لنا فى ذلك عليكم لما فعلتم"(١٧).

ولاشك أن الجاحظ يقصد بهذا ما جاء فى الشعر العربى من ذكر ملوك الحبش وشجاعتهم وبطولتهم.

وتتوالى فى هذا الكتاب الحجج التى يذكرها الجاحظ على لسان السودان لإظهار مفاخرهم التى يتباهون بها على سائر الأمم ومنها العرب.

ولعل من خير ما جاء فى هذا الكتاب فى الدفاع عن الزنج ما ذكره الجاحظ على لسانهم فى تعليلهم لنفي تهمة الغباء والجهل عنهم التى وصفوا بها كثيرًا ظلمًا وعدوانًا. إلى جانب دفاعهم عن أنفسهم فى أنهم لم يصبهم السواد تشويهًا أو مسخًا أو عقوبة، ولكنه أصابهم بسبب البيئة التى يعيشون فيها وعوامل المناخ والقرب من الشمس، وما دام الأمر كذلك فلا يجب تعييرهم بهذا السواد(١٨).

ولو أن حجج السودان كلها كانت من هذا القبيل الأخير الذى ذكرناه لما أنكر عليهم هذا أحد، أو اتهمهم بالشعوبية، ولكن مزجهم هذه الحجج الإيجابية بالاتهامات للعرب والمفاخرة عليهم يثبت تورطهم فى الشعوبية فى ذلك العصر، وقد جمع الجاحظ فى كتابه عنهم هذين الجانبين: جانب ما يحتجون به من مزايا وفضائل، وجانب ما يرمون به العرب من مثالب؛ ليكون وصفًا صادقًا لمجالات نشاط الزنج المختلفة فى عصره، ذلك النشاط

الذى ما لبث أن انفجر على هيئة ثورة هى ثورة الزنج التى أتعبت الدولة العباسية كثيرًا حتى قضت الدولة العباسية عليها.

الشعوبية الفارسية

إذا ما كانت الشعوبية الزنجية تمثل أول ظهور للعناصر الشعوبية فى الأمة الإسلامية[١٩]، فإن الشعوبية الفارسية هى أقوى شعوبية ظهرت فى العالم الإسلامي[٢٠]، من حيث كثرة عدد المنتمين إليها والعاملين على تصعيدها فى كل المجالات السياسية والدينية والاجتماعية والأدبية. إلى جانب أن آثارها فى المجتمع كانت واضحة، ونشاط المنتمين إليها كان ملموسًا، ولعل السبب فى هذا يعود إلى ما كان للفرس من ملك سابق "أورثهم مطامع وآمالاً، ولعظم سلطانهم بنصرتهم العباسيين، ولأن مكان الاصطدام وهو العراق كان قريبًا منهم، مزدحمًا بهم، متأثرًا بنفوذهم قبل الإسلام وبعده"[٢١]، إلى جانب أن الفرس لم يعهدوا قبل فتح العرب لبلادهم أن يخضعوا لغيرهم من الأمم، مما جعل إحساسهم بملك العرب لهم ولبلادهم ينقلب إلى مظاهر حقد مكتوم، ثم انفجر من خلال بركان شعوبيتهم ضد العرب[٢٢]، يضاف لهذا أن الشعوبية الفارسية كانت تستمد سمومها من الأديان القومية التى كانت للفرس وهى الزرادشتية والمزدكية والمانوية، وبذلك امتزج هجوم دعاتها بالتهجم على العرب وعلى الدين الإسلامى معًا[٢٣].

وبسبب هذا الخطر الكبير الذى كانت تمثله الشعوبية الفارسية فإن الجاحظ قد وقف لها بالمرصاد فى كل الميادين والمجالات التى حاولت فيها أن تطعن فى العرب والإسلام، وأخذت حصون الشعوبية تسقط حصنًا بعد آخر مع مواجهه الجاحظ لها ودحضه لمزاعمها حتى انتصر للعروبة والإسلام، وأصبح ما بقى من صفحاته فى مواجهه الشعوبية لسان بيان لما

تعرضت له الأمة فى هذه الأعصر المجيدة من محن، ولكن رجالاً كالجاحظ ثَبَّتوا أعمدة ملكها ونهضتها ، وكانوا للحاقدين عليها سوط عذاب.

على أن الجاحظ مع هجومه الشديد على الشعوبية الفارسية لم ينس ما للفرس من أفضال ومزايا ، وهو يذكر هذه الأفضال والمزايا حين يبتعد شبح الشعوبية الفارسية(٢٤)، ومن ذلك قوله: " فهؤلاء ملوك فارس نزلوا على شاطئ الدجلة، من دون الصراة (*) إلى فوق بغداد، فى القصور والبساتين، وكانوا أصحاب نظر وفكر، واستخراج واستنباط من لدن أزدشير بن بابك إلى فيروز بن يزدرجرد" (٢٥).

مواجهة الجاحظ لتيار الشعوبية الفارسي فى كتاب العصا

كانت أكبر معارك الجاحظ التى خاضها ضد الشعوبية الفارسية – فيما يظن – تلك التى دارت حول العصا فى الجزء الثالث من كتاب البيان والتبيين ، وقد جر الحديث عن العصا ذكر كثير مما انتقصته الشعوبية من عادات العرب فى الخطابة والحرب ، وحاولت أن تستخدم هذه الاتهامات حول العصا وسيلة للبطش بهم وبعاداتهم ، ولكن الجاحظ استطاع أن يبرئ ساحة العرب من كل اتهامات الشعوبية ويجعل العصا فى الوقت نفسه أداة لتأديبهم جزاء وفاقًا لما مزجوه بها من اتهامات للعرب .

ونجده فى الجزء الأول يشير لنيته فى تناول هذا الموضوع ،وذلك فى قوله: "وقد طعنت الشعوبية على أخذ العرب فى خطبها المخصرة والقناة والقضيب، والاتكاء على القوس، والحد فى الأرض، والإشارة بالقضيب، بكلام مستكره سنذكره فى الجزء الثانى إن شاء الله"(٢٦).

(*) هما نهران ببغداد.

كما يصرح فى الجزء الثانى من الكتاب بأنه راغب فى تناول الموضوع، ولكن انشغاله بذكر كلام النبى ﷺ والصحابة والتابعين[٢٧] يجعله يؤجله إلى الجزء الثالث.

ويبدأ الجاحظ مع أول صفحة فى الجزء الثالث فى عرض طعنات الشعوبية على العرب المتعلقة بالعصا ،والقضايا التى يجادل الجاحظ فيها الشعوبية هنا مهما تعددت فهى فى النهاية – على حد قول الدكتور سعيد منصور: – " قضية العصا .. انحرفت بها الشعوبية عن استخدامها فى الخطابة إلى استخدامها فى القتال ، ثم سارت فى طريقها بكل ما رأته متصلاً بها من مطاعن، مما واجهه الجاحظ بردوده" [٢٨].

والشعوبية فى هجومها على العصا فى كل المجالات التى ربطت هجومها على العرب بها، لم تقصد من ذلك إلا أصحاب العصا أنفسهم [٢٩].

وجدال الجاحظ مع الشعوبية حول العصا يُرَى أنه مر خلال ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى يذكر فيها طعنات الشعوبية فى العرب المتعلقة بالعصا ، وفى المرحلة الثانية يرد على هذه الهجمات ، ثم ينتهي من ذلك إلى المرحلة الثالثة وتمثل الهجوم على الشعوبية فى عقر دارها وهدم أصولها التى تستند إليها[٣٠] .

وفى المرحلة الأولى يذكر الجاحظ مطاعن الشعوبية على العرب فى حمل العصا عند ألوان الفنون القولية المتعددة لهم ، والتي يمكن إرجاعها إلى أصلين هما الخطابة والشعر، يقول الجاحظ فى ذلك: " نبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية وبمطاعنهم على خطباء العرب: بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام ومساجلة الخصوم بالموزون المقفّى والمنثور الذى لم يقف، وبالأرجاز عند المتح، وعند مجاثاة الخصم، وساعة المشاولة، وفى نفس المجادلة والمحاورة. وكذلك الأسجاع عند المناظرة

والمنافرة، واستعمال المنثور فى خطب الحمالة وفى مقامات الصلح وسل السخيمة، والقول عند المعاقدة والمعاهدة ، وترك اللفظ يجرى على سجيته وعلى سلامته، حتى يخرج على غير صنعة ولا اجتلاب تأليف ولا التماس قافية، ولا تكلف لوزن"(٣١).

ولا يخفى أن الجاحظ مع عرضه لاتهام الشعوبية للعرب فى الفقرة السابقة فى اعتمادهم على العصا عند خطابتهم وإنشادهم الشعر – قد أراد أن يظهر فى الوقت نفسه فنون العرب القولية المتعددة، فى الشعر والخطابة، وهذا التنوع والغزارة فيها يدل ابتداء على تفوقهم فى مجال البلاغة والخطابة والشعر، فهذه الأمة التى لم تترك موقفًا فى حياتها إلا وقرنته بفن من فنون الخطابة أو الشعر، هى أمة بليغة بلاشك، فهم يخطبون عند مساجلة الخصوم، ويرتجزون عند المتح من الآبار، ويسجعون فى المفاخرات والمنافرات، كما يستخدمون الخطابة للصلح بين المتخاصمين، وعند عقد المعاهدات، مع توفر البلاغة والارتجال فى كل هذه الفنون القولية.

وبهذا العرض القوى من الجاحظ لفنون العرب القولية يصبح المتهجم عليهم أحمق لا ينظر لهذا التفوق وذلك النبوغ، ولكنه لا يشغله إلا العصا، يقول: " قالت الشعوبية ومن يتعصب للعجمية القضيب للإيقاع، والقناة للبقار، والعصا للقتال، والقوس للرمى.

وليس بين الكلام وبين العصا سبب، ولا بينه وبين القوس نسب، وهما إلى أن يشغلا العقل ويصرفا الخواطر، ويعترضا على الذهن أشبه، وليس فى حملهما ما يشحذ الذهن، ولا فى الإشارة بهما ما يجلب اللفظ. وقد زعم أصحاب الغناء أن المغنى إذا ضرب على غنائه قَصَّر عن المغنى الذى لا يضرب على غنائه. وحمل العصا بأخلاق الفَدَّادِين أشبه، وهو بجفاء العرب وعنجهية أهل البدو ، ومزاولة إقامة الإبل على الطرق أشكل وبه أشبه" (٣٢).

ولا يخفى من الفقرة السابقة كيف أن الشعوبية تأبى إلا أن ترد العرب دائمًا إلى الجزيرة التى جاءوا منها، وإلى حياة البادية التى كانوا يعيشونها قبل الفتوحات الإسلامية، وهذه العودة هنا من خلال وصفها للعرب بأنهم مازالوا على الرغم من تحضر البلدان التى يعيشون فيها يصطحبون عاداتهم التى رافقتهم فى جاهليتهم وصحرائهم، فهم بذلك يتأبون على الحضارة، ولا يعرفون إلا حياة البادية والصحراء، فأولى بهم لذلك أن يعودوا للصحراء التى جاءوا منها ويتركوا المدن لمن يعرف أصول التحضر والعمران.

ويالها من حجج قوية وسموم خبيثة يسوقها الجاحظ على لسان الشعوبية فى اعتراضهم على استخدام العرب العصا والقوس خلال خطابتهم، وهذا العرض القوى من الجاحظ لحجج الشعوبية سببه أن الجاحظ يريد أن يفرغ كل ما عندهم من حجج وأدلة " دفعًا منه لموقعهم إلى مراكز القوة والطعن حتى تستنفد طاقتهم – قبل أن يقف إزاءها شدًّا وجذبًا حتى يصل بها إلى حد الاستنزاف"(٣٣).

وبعد أن سخرت الشعوبية من استخدام العرب العصا والقسى عند خطابتهم تأخذ فى التهوين من شأن خطابة العرب، من خلال ذكر أن الأمم كلها تعرف الخطابة حتى الزنج المشهورين بالغباوة وغلظ الحس عندهم خطابة، وبذلك لا يصبح للعرب أى ميزة فى هذا الأمر الذى ساوتهم الأمم كلها فيه، بل إن الفرس فى رأى الشعوبية هم أخطب الناس، يقول الجاحظ فى ذلك: "قالوا: والخطابة شىء فى جميع الأمم، وبكل الأجيال إليه أعظم الحاجة، حتى إن الزنج مع الغثارة، ومع فرط الغباوة، ومع كلال الحد وغلظ الحس وفساد المزاج، لتطيل الخطب، وتفوق فى ذلك جميع العجم، وإن كانت معانيها أجفى وأغلظ، وألفاظها أخطل وأجهل. وقد علمنا أن أخطب الناس الفرس، وأخطب الفرس أهل فارس، وأعذبهم كلامًا وأسهلهم مخرجًا

وأحسنهم دلاً وأشدهم فيه تحكمًا، أهل مرو، وأفصحهم بالفارسية الدرية، وباللغة الفهلوية، أهل قصبة الأهواز. فأما نغمة الهرابذة ولغة والموابذة، فلصاحب تفسير الزمزمة"(٣٤).

ولم ينس شعوبيو الفرس أن يمزجوا تمكنهم فى الخطابة بأديانهم المجوسية من خلال ذكر القائمين بها من هرابذة وموابذة الذين كانت لهم طريقة خاصة فى الكلام والتعبير.

ولا يخفى أن هذا الربط بين تيار الشعوبية وتيار المجوسية يدل على أن المصب لكليهما هو الزندقة.

وبعد أن قلل الشعوبيون من شأن خطابة العرب، ورفعوا من قدر خطابة الفرس يجدون أنفسهم قد ثبتوا أقدامهم بشكل قوى على أرض المعركة، فيذكرون المؤلفات الفارسية التى ينصح بها لمن يحب أن يبلغ فى صناعة البلاغة، كما ينصحون من يرغب فى قراءة الكتب التى تنمى العقل، وفيها علم بالمراتب والعبر والمثلات بالرجوع إلى كتبهم الفارسية. ولكن هذه الكتب ليست سوى كتابين، أما الكتاب الأول الذى ينصح به لطالب البلاغة فهو كتاب كاروند، وأما الكتاب الثانى الذى ينصح به للراغب فى معرفة العبر والمثلات فهو كتاب سير الملوك.

وتنتهى الشعوبية من كل ذلك إلى هذه النتيجة: "فمن قرأ هذه الكتب، وعرف غور تلك العقول، وغرائب تلك الحكم، عرف أين البيان والبلاغة، وأين تكاملت تلك الصناعة، فكيف سقط على جميع الأمم من المعروفين بتدقيق المعانى، وتخير الألفاظ وتمييز الأمور، أن يشيروا بالقناة والعصى، والقضبان والقسى. كلا ولكنكم كنتم رعاة بين الإبل والغنم فحملتم القنا فى الحضر بفضل عادتكم لحملها فى السفر، وحملتموها فى المدر بفضل عادتكم لحملها فى الوبر، وحملتموها فى السلم بفضل عادتكم لحملها فى الحرب،

ولطول اعتيادكم لمخاطبة الإبل، جفا كلامكم، وغلظت مخارج أصواتكم ، حتى كأنكم إذا كلمتم الجلساء إنما تخاطبون الصمان"[٣٥] .

وتعود الشعوبية للعصا مرة أخرى لتُصَعِّدَ من دائرة الاتهامات ، وتتضح أكثر نوازع كراهيتهم للعرب ، فيرددون نغمتهم المفضلة فى جرأة بأن العرب ليسوا إلا بدوًا لا يعرفون لغة التحضر ولا أساليب العمران، وما زالت الصحراء وقيمها هى التى تحرك تصرفاتهم[٣٦].

وتطعن الشعوبية فى أدوات القتال عند العرب فى الجاهلية كرماحهم التى كانت من مُرَّان، وأسنتهم التى كانت من قرون البقر، كما تطعن فى ركوبهم الخيل فى الحرب أعراء، وأنهم لم يعرفوا الركاب، وكذلك يطعنونهم بأنهم لم يعرفوا المطارد وهى الرماح القصيرة التى يستخدمها الفرسان على خيولهم[٣٧].

كما يذكر الجاحظ مآخذ الشعوبية على العرب فى طريقة استخدام القنا خلال القتال[٣٨]، ويعيبون عليهم أنهم يتساندون فى الحرب، مع العلم أن الشركة مرفوضه فى ثلاثة أشياء: فى الملك والحرب والزوجة [٣٩].

ثم يُتهم العرب بأنهم لا يعرفون القتال فى الليل، ولا يعرفون الكمين ولا تقسيمات الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب وجناح وساقة وطليعة، ولا وسائل القتال المتقدمة وقتذاك كالمجانيق والدبابات والخنادق[٤٠].

ويتهمونهم بأنهم ليس لهم صاحب علم يرجع إليه المنحاز ويتذكره المنهزم، وأن قتالهم إما سلة وإما مزاحفة. والمزاحفة على مواعد متقدمة، والسلة مسارقة وفى طريق الاستلاب والخلسة[٤١].

ويكرر الشعوبيون اتهامهم للعرب بأنهم لم يكونوا يقاتلون بالليل ، ويأتون هذه المرة بالشواهد الشعرية على ذلك[٤٢].

وهنا يكون هجوم الشعوبية على العرب قد بلغ غايته، وتكون بذلك المرحلة الأولى وهى مرحلة الهجوم والتهجم من الشعوبية على العرب قد

استنفدت وسائلها، ولم تعجز حجة إلا ذكرتها، ولا سندًا من شعر أو خبر إلا أيدت به أقوالها.

ولولا أن الجاحظ هو المتصدى للشعوبية فى موقعة العصا تلك لذهب بنا الظن إلى أن مثل هذه الاتهامات يصعب الرد عليها و تفنيدها ، ولكن لأن الجاحظ هو المتصدى لهم فإننا نتوقع منه كما رفعهم وأعلى حججهم وأيدهم – كعادته حين عرضه لأدلة الخصوم – بحجج من عنده، أن يغير على كل ما بناه لهم فيهدمه، ويضع على آثاره صروح الحق والحقيقة.

وقد بدأ الجاحظ مرحلة الرد على هذه المطاعن الشعوبية، بذكره لمعارف العرب العسكرية وأدواتها القتالية التى كانت تعرفها فى الجاهلية مستشهدًا بالشعر الجاهلى على ذلك، ومؤكدًا بهذا أن اتهام الشعوبية للعرب فى وسائل قتالهم وأدواتهم القتالية اتهام يفتقر إلى الدليل القوى؛ لأن الأدلة القوية تقف فى صفهم وتؤكد معرفتهم لكثير من فنون القتال وأدواته منذ العصر الجاهلى. كما خالف الجاحظ الترتيب المنطقى للمسائل المطروحة، وبدأ الرد على اتهامات الشعوبيين للعرب فى أدوات قتالهم ووسائلهم فى القتال لرؤيتهم الاستفزازية للعرب فى الموقف الحربى(٤٣).

يقول الجاحظ مدافعًا عن العرب "قلنا: ليس فيما ذكرتم من هذه الأشعار دليل على أن العرب لا تقاتل بالليل. وقد يقاتل بالليل والنهار من تحول دون ماله المدن وهول الليل. وربما تحاجز الفريقان، وإن كل واحد منهم يرى البيات، ويرى أن يقاتل إذا بيتوه وهذا كثير. والدليل على أنهم كانوا يقاتلون بالليل قول سعد بن مالك فى قتل كعب بن مزيقيا الملك الغسانى:

وليلةَ تُبَّعٍ وخَميسِ كعب ... أتونا بعد ما نمنا دَبيبا

فلم نُهْدَدْ لبأسهمُ ولكن ... ركبنا حدَّ كوكبهم رُكوبا

بضربٍ يُفْلَقُ الهاماتُ منه ... وطعنٍ يفصل الحَلَق الصَّليبا"(٤٤)

والجاحظ يرد على الشعوبية اتهامها فى عدم قتال العرب بالليل من خلال رميهم بعدم فهم مرامى الشعر العربى؛ لأنهم عمموا أحكامهم على عدم قتال العرب بالليل على هذه الأبيات التى استشهدوا بها فحسب، فى حين أن هناك أبياتًا شعرية أخرى كثيرة تدل على أنهم كانوا يقاتلون بالليل، وهى مما لم ينتبه الشعوبيون إليه أو عرفوها وأنكروها ليبلغوا مأربهم فى الاتهام والتشويه للعرب .

ثم يذكر الجاحظ بعض عادات العرب فى القتال وأدوات قتالهم وأساليب القتال عندهم، بما يدل على أن مواهبهم فى القتال وقدراتهم فيه لا تساويها إلا بلاغتهم فى فنون القول كالخطابة والشعر. وفى الوقت نفسه يدل ذكر الجاحظ لهذه الأدوات، وهذه الأساليب على تمكنه فى معرفة وسائل القتال وأدواته، وقد اكتسب هذه الخبرة من المعاينة إلى جانب السماع والقراءة، فهو قد شارك فى بعض الجيوش مرافقًا لقادتها[٤٥].

ويستمر الجاحظ فى ذكر دفاعه حول اتهامات الشعوبية للعرب فى أدوات قتالهم ووسائلهم فى القتال، ويطول المقام وحق له أن يطول ويحتوى على الأدلة من الشعر والحديث والخبر إفحامًا لهذه الشعوبية، ولدعاتها فيقول: "وكانوا إذا أجمعوا للحرب دخنوا بالنهار وأوقدوا بالليل"[٤٦]، ثم يذكر الشواهد الشعرية على ذلك[٤٧]، ثم يذكر أنهم كانوا يعرفون الكمين مستدلاً على ذلك بالشواهد الشعرية أيضًا[٤٨].

ويرد على اتهام الشعوبية بعدم معرفة العرب للركب بقوله: "وأما ذكرهم للركب فقد أجمعوا على أن الركب كانت قديمة، إلا أن ركب الحديد لم تكن فى العرب إلا فى أيام الأزارقة. وكانت العرب لا تعود أنفسها إذا أرادت الركوب أن تضع أرجلها فى الركب، إنما كانت تنزو نزوًا"[٤٩]، وقد قال عمر بن الخطاب: "اقطعوا الركب، وانزوا على الخيل نزوًا"[٥٠].

وهكذا نرى كيف جعل الجاحظ عدم كثرة استعمال العرب للركب مما يعد فى فنون شجاعتهم، وفروسيتهم، مستشهدًا بقول عمر بن الخطاب فى وصاياه للجنود المحاربين بعدم استعمالها لكونها تقيد الفارس وتحد من مهارته.

ثم يذكر الجاحظ أن العرب قد عرفوا أنواعًا مختلفة من الرماح خلاف اتهام الشعوبية لهم، ويذكر الجاحظ هذه الأنواع بلسان الخبير العسكرى، ومن قصر على الحرب معارفه(٥١).

ويؤكد الجاحظ حججه على كفاءة العرب القتالية فى الجاهلية – وهى الحقبة التى يحلو للشعوبية أن يطعنوا فيها العرب – بذكره أن العرب أمة يكثر فيها الغارات والحروب ويكثر فيهم الطلب؛ ولذا اهتموا بالحرب وأدواتها، وظهرت معرفتهم بوسائلها وأدواتها فى شعرهم بما يرد طعن الطاعن عليهم والجاحد لفضلهم.

وبعد أن يثبت الجاحظ للشعوبية بالأدلة والشواهد خطأ تصورهم لأسلحة العرب وأساليب قتالهم ، يعود ليرد على اتهامهم الأول والأساسى فى كتاب العصا ألا وهو تصورهم أن العرب لا يتميزون بخطابتهم عن أى أمة من الأمم؛ لأن كل الأمم عندها خطابة، ثم إن الفرس يتفوقون على العرب فى الخطابة خاصة أهل خراسان وسكان مرو على وجه الخصوص.

ولما كان هجوم الشعوبية هنا ينصب على أمر يعتز به العرب ؛ لذا جعل الجاحظ من عرضه لهجمات الشعوبية على الخطابة ورده عليها محور رده على الشعوبية، فى كتاب العصا من كتابه البيان والتبيين(٥٢).

وفى سبيل إظهار تفرد العرب فى خطابتها على سائر الأمم، يذكر ما عند هذه الأمم من خطابة والشكل الخاص بها، ثم يذكر خطابة العرب على أنها صورة مختلفة عن خطابة سائر الأمم لاعتمادها على البديهة والارتجال.

يقول الجاحظ: "وجملة القول أنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس. فأما الهند فإنما لهم معانٍ مدونة، وكتب مخلدة، لا تضاف إلى رجل معروف، ولا إلى عالم موصوف؟ وإنما هى كتب متوارثة ، وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة.

ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بكىّ اللسان، غير موصوف بالبيان، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله معانيه، وبخصائصه. وهم يزعمون أن جالينوس كان أنطق الناس، ولم يذكروه بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة ، وفى الفرس خطباء، إلا أن كل كلام للفرس ، وكل معنى للعجم ، فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد رأى ، وطول خلوة ، وعن مشاورة ومعاونة ، وعن طول التفكر ودراسة الكتب ، وحكاية الثانى علم الأول ، وزيادة الثالث فى علم الثانى ، حتى اجتمعت ثمار تلك الفكر عند آخرهم"(٥٣).

هكذا حكم الجاحظ على خطابة الأمم فى عصره ، قبل أن يذكر ما تميز به العرب عليها فى خطابتهم ذات الصبغة الارتجالية.

ويشعرنا هذا الاستقصاء من الجاحظ فى الحكم على خطابة الأمم المشهورة فى عصره باجتهاده فى التعرف على طرق امتلاك هذه الأمم للخطابة، ووسائل التعبير الأخرى التى يستخدمونها ليعبروا عن أفكارهم ومشاعرهم.

ونشعر من عبارات الجاحظ السابقة أن الأمر معه لم يعد يقتصر على محاولة رد افتراءات الشعوبية على العرب ، بل لقد أراد أن يغزو العدو فى معاقله مما يعنى أنه قد دخل فى المرحلة الثالثة من جدله مع الشعوبية ، وها هو ذا ينقد خطابة الفرس ، ويرى أنها نتيجة طول الفكر والاجتهاد ، وحفظ الثانى علم الأول ودراسة الكتب؛ أى إنها بلاغة فيها من السماع والحفظ أكثر

مما فيها من الابتكار، كما أن كتبهم التى وصلتنا ليس بمستبعد أن يكون قد ألفها بعض أبنائهم كسهل بن هارون، وابن المقفع ونسبوها لهم(٥٤).

أما خطابة العرب فلها صفة الارتجال التى تجعل كل خطبة فيها كأنها وليدة الساعة، وبنت وقتها، يقول: "وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام، وإلى رجز يوم الخصام، أو حين يمتح على رأس بئر، أو يحدو ببعير، أو عند المقارعة والمناقلة، أو عند صراع فى حرب، فما هو إلا أن يصرف وهمه إلى جملة المذهب، و إلى العمود الذى إليه يقصد، فتأتيه المعانى أرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحدًا من ولده، وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أظهر، وكل واحد فى نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ، ويحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب ، وإن شيئًا هذا الذى فى أيدينا جزء منه، لبالمقدار الذى لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب وعدد التراب، وهو الذى يحيط بما كان، والعالم بما سيكون"(٥٥).

وبذلك فقد كان تمكن العرب فى الارتجال من أسبابه تلك الأمية التى كانوا فيها، و لكن الأمية وحدها ما كانت لتجعل العرب بهذه الطبيعة الارتجالية الفريدة بين الأمم لو لم يكن الله قد وهبهم تلك الموهبة فى قوة البديهة وسرعة الخاطر، وامتلاك ناصية البلاغة. ولكل هذا استحقوا أن تأتيهم المعجزة القرآنية التى أدركوا بما لديهم من مواهب بلاغية أنها تفوق

قدرات البشر، وخضعوا لها وآمنوا بها ، فحق لكل الأمم أن تخضع لها بخضوعهم؛ لأنهم فوق كل الأمم بلاغة وخطابة[٥٦].

ويؤكد الجاحظ فى أكثر من مناسبة على أن الكلام موهبة العرب الكبرى، وأنه اتفق لهم فى هذا ما لم يتفق لسائر الأمم، فقد "فاض بيانهم، وجاشت به صدورهم، وغلبتهم قوتهم عليه عند أنفسهم، حتى قالوا فى الحيات والعقارب، والذباب والكلاب، والخنافس والجعلان، والحمير والحمام ، وكل ما دب ودرج، ولاح لعين، وخطر على قلب.

ولهم بعد أصناف النظم، وضروب التأليف، كالقصيد والرجز، والمزدوج ، والمجانس، والأسجاع، والمنثور"[٥٧].

وإذن لا نعجب عندما تحفل أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام بالمنافسات بين الشعراء والمنافسات بين الخطباء، وأن يشجع النبى ﷺ على مثل هذه المنافسات والمسابقات ما لم يداخلها ذكر ما حرمه الله[٥٨].

وطبيعة العرب فى الارتجال شعرًا ونثرًا لم يكن الجاحظ أول من ذكرها؛ لأنها حقيقة يذكرها عنهم كل منصف لهم مدرك لفنون مواهبهم[٥٩].

ولكن يحسب للجاحظ أنه كان أول من وضح خصائص هذه الموهبة الارتجالية، وذكر تفرد العرب بها دون الأمم كلها[٦٠].

ويستطيع كل منكر لهذه البلاغة الارتجالية التى أوتيها العرب دون سائر الأمم أن يتحقق من صدق هذه الدعوى بأن يدخل إلى أرض الأعراب الخُلَّص والفصاحة التامة ليرى بعينيه ويسمع بأذنيه تلك الحقيقة، يقول الجاحظ فى ذلك: "وأخرى: أنك متى أخذت بيد الشعوبى فأدخلته بلاد الأعراب الخُلَّص، ومعدن الفصاحة التامة، ووقفته، شاعر مفلق، أو خطيب مصقع، علم أن الذى قلت هو الحق، وأبصر الشاهد عيانًا. فهذا فرق ما بيننا وبينهم"[٦١].

وإذا كان الجاحظ يرى أن طبيعة العرب هى الارتجال فى فنون البلاغة، فإنه يرى أن الإعداد والتنسيق للخطب والشعر لم يكن بعيدًا أيضًا عن طائفة منهم، ولكن يقتصر هذا الأمر على سكان الحضر والمدن منهم وعلى الأمم التى أخذت اللغة عنهم ، واستبدلوها بلغاتهم الأصلية[٦٢]، أما سكان البوادى – وهم ممثلو العرب فى نقائهم وفطرتهم الأولى– فكانوا مطبوعين على الارتجال والبداهة وسرعة الخاطر .

وبعد أن اطمأن الجاحظ إلى أن دائرة الصراع أصبحت داخل معاقل الشعوبية ، واطمأن أيضًا إلى حسم الأمر لصالح الخطابة العربية على حساب خطابة الأمم الأخرى – خاصة الفرس – نراه يعود للعصا مرة أخرى، ولكن العودة إليها هذه المرة ليس لإثبات تهم جديدة على العرب من قبل الشعوبية كما كان الأمر فى مرحلة الصراع الأولى ، ولكن ذكرها هذه المرة من أجل تعداد فضائلها ومزاياها التى تعادل فى الوقت نفسه فضائل العرب ومزاياهم؛ لأنهم يأخذونها علامة لهم وسيما تخصهم دون سائر الأمم.

ولهذا الارتباط الوثيق الذى أصبح بين العصا والعرب يكثر الجاحظ من عرض الشواهد المختلفة من قرآنٍ كريمٍ وحديث شريف، وشعر وخبر وقصص وأمثال على فوائد العصا وفضلها .

كما يستشهد الجاحظ بالأنبياء الذين ذكرهم الله فى قرآنه واتخذوا عصيًّا لهم يحملونها فى سائر أحوالهم كسليمان وموسى عليهما السلام، يقول الجاحظ: "والدليل على أن أخذ العصا مأخوذ من أصل كريم، ومعدن شريف، ومن المواضع التى لا يعيبها إلا جاهل، ولا يعترض عليها إلا معاند، اتخاذ سليمان بن داود عليه السلام العصا لخطبته، وموعظته، ولمقاماته، وطول صلاته، ولطول التلاوة والانتصاب ، فجعلها لتلك الخصال جامعة.

قال الله عز وجل وقوله الحق:﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾(*) والمنسأة هى العصا"(٦٣).

ويذكر الجاحظ للقارئ سبب بدئه فى ذكر مزايا العصا باستخدام النبى سليمان لها بقوله: "وإنما بدأنا بذكر سليمان ﷺ لأنه من أبناء العجم، والشعوبية إليهم أميل ، وعلى فضائلهم أحرص، ولما أعطاهم الله أكثر وصفًا وذكرًا"(٦٤).

ولما كان الأمر كذلك يذكر الجاحظ نبيًّا آخر من أنبياء العجم ، كانت للعصا معه معجزات كثيرة لا ينكرها أحد منهم، هو موسى عليه السلام ، فيذكر الجاحظ الآيات القرآنية التى ذكرت ما ارتبط بعصاه من معجزات وأحداث كبرى كان لها وقع مؤثر فى التاريخ(٦٥).

ثم يذكر الجاحظ بعض قصص وأمثال وأبيات شعر للعرب ترتبط بالعصا(٦٦)، وينتهى من كل هذا الاستقصاء إلى هذه النتيجة التى تفحم الشعوبيين الذين يسخرون من العصا ويهونون من شأنها حين حَمْل العرب لها ساعة خطابتهم إذ يقول: "فإذا كانت العصا صحيحة ففيها من المنافع الكبار والمرافق الأوساط والصغار ما لا يحصيه أحد ، وإن فرقت ففيها مثل الذى ذكرنا وأكثر. فأى شئ يبلغ فى المرفق والرد مبلغ العصا.

وفى قول موسى: "ولى فيها مآرب أخرى" دليل على كثرة المرافق فيها، لأنه لم يقل: "ولى فيها مأربة أخرى" والمآرب كثيرة والذى ذكرنا قبل هذا داخل فى تلك المآرب" (٦٧).

(*) سورة سبأ: آية ١٤.

على أن الجاحظ لا يكفيه ما ذكره من شواهد وأدلة على فوائد العصا ومنافعها وكثرة تصرفها فى فنون الشعر والخطب والأمثال والقصص، فيذكر جملة أخرى من تلك الفوائد والمنافع ووجوه تصرفها المختلفة فى فنون الأدب والحكمة[٦٨] ، ثم يعلق على كل هذا الكم الممتع والبليغ من الشواهد المختلفة التى ذكرت فيها العصا بقوله : " انظر – أبقاك الله – فى كم فن تصرف فيه ذكر العصا من أبواب المنافع والمرافق ، وفى كم وجه صرفته الشعراء وضرب به المثل، ونحن لو تركنا الاحتجاج لمخاصر البلغاء، وعصىّ الخطباء، لم نجد بدًّا من الاحتجاج لجلّة المرسلين، وكبار النبيين، لأن الشعوبية طعنت فى جملة هذا المذهب على قضيب النبى ﷺ وعنزته، وعلى عصاه ومخصرته، وعلى عصا موسى" [٦٩].

وإذا كان الجاحظ قد وصل بالعصا إلى أن أصبحت قطبًا كبيرًا يتجمع حولها كل عجيب وطريف من أدب وفن وحكمة ، وحق لها بهذا القدر السنىّ الذى بلغته – أو بلّغها الجاحظ إياه – ألا تعبأ بناقد أو ناقم من قدرها. إذا كان الجاحظ قد وصل بالعصا إلى كل هذا فكان لابد له من أن يوجه نقده لهؤلاء الشعوبيين الذين جهلوا حقائق علم الاجتماع ، وطبائع الشعوب واختلاف البيئات، وتأثيرها بما تفرضه من قوانين[٧٠]. يقول الجاحظ فى ذلك: "ولو علم القوم أخلاق كل ملة، وزى أهل كل لغة، وعللهم فى ذلك واحتجاجهم له، لقل شغبهم، وكفونا مؤونتهم. هذه الرهبان تتخذ العصى من غير سقم ولا نقصان فى جارحة. ولابد للجاثليق من قناع ومن مظلة وبرطلة ومن عكاز ومن عصا ، من غير أن يكون الداعى إلى ذلك كبرًا ولا عجزًا فى الخلقة.

ومازال المطيل القيام بالموعظة أو القراءة أو التلاوة يتخذ العصا عند طول القيام، ويتوكأ عليها عند المشى كأن ذلك زائد فى التكهل والزماتة، وفى نفى السخف والخفة.

وبالناس حفظك الله أعظم الحاجة إلى أن يكون لكل جنس منهم سيما ولكل صنف منهم حلية وسمة يتعارفون بها"[٧١].

الأمر إذن هو مسألة جهل من الشعوبية فى معرفة عادات كل أمة، وعدم صدق معاينة منهم لما يدور حولهم ، فهذه الرهبان تتخذ العصى ، ولابد للجاثليق من قناع ومظلة وبرطلة ومن عكاز ومن عصا، فما بال الشعوبية ترى كل هذا فى عادات الرهبان وغيرهم من الناس ثم تستنكر على العرب استخدام العصا حين قيامها بالخطابة والموعظة، ولها فيها معانٍ فى نفى السخف والخفة وزيادة فى التكهل والزماتة.

ويعطى الجاحظ أمثلة أخرى كثيرة على سيما الناس وعاداتهم عند أداء مناسك عباداتهم، وفى أحوال حياتهم المختلفة، ويوضح اختلاف الأمم بعضها عن بعض فى هذه العادات[٧٢]، حسب ما يتوارثونه عن الأجداد ، وما يُرَى بينهم منها نتيجة جريان الحوادث فيهم والنوازل بهم.

وبعد أن يقدم الجاحظ هذه الأمثلة والدلائل على عادات الأمم وسيماهم يعود للعصا ليقول: "وأيضًا إن حمل العصا والمخصرة دليل على التأهب للخطبة، والتهيؤ للإطناب والإطالة، وذلك شيء خاص فى خطباء العرب، ومقصور عليهم، ومنسوب إليهم حتى إنهم ليذهبون فى حوائجهم والمخاصر بأيديهم، إلفًا لها وتوقعًا لبعض ما يوجب حملها، والإشارة بها.

وعلى ذلك المعنى أشار النساء بالمآلى وهن قيام فى المناحات ، وعلى ذلك المثال ضرَبْن الصدور بالنعال.

وإنما يكون العجز والذلة فى دخول الخلل والنقص على الجوارح ، أما الزيادة فيها فالصواب فيه"[٧٣].

ونشعر كأننا أمام قياس منطقى تقول إحدى مقدمتيه لكل الأمم والشعوب عادات تميزها عن بعضها البعض، والمقدمة الأخرى تقول العرب

أيضًا لهم عادات بما أنهم شعب من شعوب العالم، ومن عادات العرب استخدامهم العصا حين خطابتهم وإنشادهم .

وتكون نتيجة هذا القياس: إن استخدام العرب العصا عند الخطابة بما أنها عادة من عاداتهم، فهى إحدى عادات أمة من بين الإنسانية، ويجب توقيرها ووضعها ضمن ظروفها شأن باقى عادات الأمم وتقاليدها.

على أن هذه العصا هى عند العرب بمثابة رمز يشير لمعانٍ كثيرة قد جهلتها الشعوبية أو تجاهلتها، وراحت تطعن من يستخدمها عن جهل وسوء تقدير.

على أن ما جعل الشعوبية تتجاهل قوانين الله فى أرضه، وعاداته فى خلقه، واختلاف كل أمة عن أمة ناتج عن حقدها على العرب، هذا الحقد الذى فجر تيار الشعوبية، وقربها من الزندقة ببغضها للدين الذى جاء به العرب لهداية الإنسانية كلها ، يقول الجاحظ فى ذلك: "ثم اعلم أنك لم تر قومًا قط أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكًا لعرضه، ولا أطول نصبًا، ولا أقل غنمًا من أهل هذه النحلة، وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم، وتوقد نار الشنآن فى قلوبهم، وغليان تلك المراجل الفائرة، وتسعر تلك النيران المضطرمة. ولو عرفوا أخلاق أهل كل ملة، وزى أهل كل لغة وعللهم، على اختلاف شاراتهم وآلاتهم ، وشمائلهم وهيئاتهم ، وما علة كل شئ من ذلك، ولم اجتلبوه ولم تكلفوه، لأراحوا أنفسهم، ولخفت مؤونتهم على من خالطهم"(٧٤).

وما كان لهذا الحقد الدائم الفوران فيهم من العرب لكونهم فتحوا بلادهم وملكوا أرضهم أن يهدأ أو تنطفئ ناره وينقطع فورانه لأن مبعثه الحسد، والحسد كما يقول الجاحظ: "داء ينهك الجسد، ويفسد الود، علاجه عسر، وصاحبه ضجر، وهو باب غامض وأمر متعذر، وما ظهر منه فلا يداوى، وما بطن منه فمداويه فى عناء"(٧٥).

فليمت إذن هؤلاء الشعوبيون بغيظهم، ولينخر هذا الحسد فى نفوسهم، ولتستمر عصا الجاحظ تطيح بما تجيش به نفوسهم وتأباه النفوس الكريمة والعقول الصحيحة، هذه العصا التى وقفت لهم بالمرصاد وسدت عليهم مداخل القول ومخارجه، وكان للجاحظ معها إطالة هى ليست كل ما عنده من قوة، ولكنها بهذا الحد كافية لإخراس هذا الفريق الشعوبى، وإن عادوا عاد لهم ومعه قوى أخرى وعصا جديدة، يقول الجاحظ: "وأما العصا فلو شئت أن أشغل مجلسى كله بخصالها لفعلت"(٧٦).

وهكذا رأينا الجاحظ يواجه الشعوبية الفارسية فى كتاب العصا، و يبطل مزاعمها ويرد اتهاماتها، ثم لا يكتفى بهذا، وإنما يُغير عليها فى معاقلها ويوجه سهام النقد لها، ويبرر جوانب التفوق عند العرب فى الخطابة وفنون القتال ، ويخرج الجاحظ من هذه الموقعة منتصرًا لصدق المرجعية التى يعتمد عليها ، ولقوة الأدلة والحجج التى يستند لها.

وقد تعددت صولات الجاحظ مع الشعوبية الفارسية على وجه الخصوص، ودحض فى كل موقعة له معها افتراءاتهم، ولعل فيما ذكرناه من الكتب التى ألفها الجاحظ حول الشعوبية ما يدل على هذه الصولات المختلفة التى وقفها الجاحظ مع الشعوبية الفارسية على وجه الخصوص، وكيف أنه كان بالمرصاد لها فى كل دائرة من دوائر الصراع التى اشتعل الجدل فيها بين العرب والشعوبية.

الشعوبية النبطية

يقصد بالنبط الساميون سكان العراق القدماء، ومنهم ملوك بابل(٧٧)، وقد كان وجودهم متمثلاً فى بيئة العراق، وكانوا يتباهون بما كان لهم من حضارات قديمة، كما تمثلت شعوبيتهم فى افتخارهم بمعرفتهم للفلاحة وإجادتهم لها(٧٨).

وقد كان ينظر إليهم من قِبَل العرب على أنهم من أقل الأمم والشعوب شأنًا؛ ولذلك يضرب المثل بهم فى القلة والذلة بين الأمم، ومع هذا نجد من المتكلمين من يتعصب لهم على القرشيين عند اختيار الإمام، فقد زعم ضرار ابن عمرو "أن الإمامة تصلح فى غير قريش، حتى إذا اجتمع قرشى ونبطى قدمنا النبطى؛ إذ هو أقل عددًا، وأضعف وسيلة فيمكننا خلعه إذا خالف الشريعة"(٧٩).

والملاحظ أن قول ضرار فى تقديم النبط على القرشيين فى اختيار الإمام ليس معناه أفضليتهم عليهم وعلى غيرهم من الأمم، ولكن يفهم من كلامه عكس ذلك، فهو يرى أن أقل الأمم شأنًا أولى أن تكون الخلافة فيهم حتى يسهل عزل الخليفة إن أخطأ أو حدث منه تجاوزات.

وينسب المسعودى للجاحظ وثمامة بن أشرس وضرار بن عمرو رأيًا غريبًا، فهو ينسب لهم أنهم يفضلون النبط على العرب، يقول المسعودى فى ذلك: "وقد زعم جماعة من المتكلمين – منهم ضرار بن عمرو وثمامة بن أشرس وعمرو بن بحر الجاحظ أن النبط خير من العرب، لأن من جعل الله تبارك وتعالى النبى ﷺ منهم لم يدع أكبر شرف فى الدنيا إلا وقد أعطاهم إياه، ولا نعمة على من جعل الله تعالى النبى عليه السلام منهم أكبر من النبى ﷺ، ولا بلوى على من لم يجعل الله عز وجل النبى ﷺ منهم أكبر من خروج النبى ﷺ، إلا أنهم مع هذا كله لهم عند الله فضل ما بين النعمة والبلاء"(٨٠).

ويُرد على الحجة السابقة القائلة بتفضيل النبط على العرب لكونهم قد ابتلوا بكون النبى ﷺ ليس منهم، وبسلب النبوة عنهم ، بأن العرب يمكن أن يتباهوا ويقولوا: إن كون النبى منهم يعنى اصطفاء الله لهم على سائر الأمم مما يعنى تفضيلهم عليها كلها (٨١).

ولسنا فى مجال تفضيل أمة على أمة؛ لأن الفضل يختلف من وقت لآخر فيها، أما ما نحب أن نناقشه هنا فهو مقدار صحة ما نسب للجاحظ فى تفضيله للنبط على العرب، وهو قول غريب لم ينسبه للجاحظ سوى المسعودى فى كتابه مروج الذهب.

وفى ذلك يقول د. شارل بللا: "وقد ندهش لقول المسعودى الذى تبناه بعده غولدزيهر، وفيه يدعى أن الجاحظ فضل النبطيين على العرب، ولا شك أن المقصود بذلك تفسير مغرض لرأى الجاحظ لم نجد فى آثاره ما يسوغه"(٨٢).

وفى رأيى أن الجاحظ المتعصب للعروبة لا يمكن أن يصدر عنه ما يشير إلى تفضيل أى أمة على العرب، ولكنه فيما يبدو قد ذكر أقوال ضرار ابن عمرو ومن يتبعه من الضرارية على أنها أفكار تشيع فى مجتمعه، وعرضها بأساليبه فى إبراز جوانب القوة فيها ليسهل الرد عليها بعد ذلك، فظن بعض الناس – ومنهم المسعودى – أن الجاحظ يقول بآراء الضرارية، كما ظنوا أيضًا لعرضه حجج العثمانية بقوة أن الجاحظ يميل إليها(٨٣)، على أن الجاحظ قد نفى عن نفسه الميل إلى العثمانية أو الضرارية بقوله لهؤلاء الذين يسيئون فهم مقاصده من مؤلفاته فى الفرق والمذاهب: "وعبتنى بحكاية قول العثمانية والضرارية، وأنت تسمعنى أقول فى أول كتابى: وقالت العثمانية والضرارية، كما سمعتنى أقول وقالت الرافضة والزيدية، فحكمت علىّ بالنصب لحكايتى قول العثمانية، فهلا حكمت علىّ بالتشيع لحكايتى قول الرافضة!! وهلا كنت عندك من الغالية لحكايتى حجج الغالية، كما كنت عندك من الناصبة لحكايتى قول الناصبة!!"(٨٤).

ويؤكد الشهرستانى أن المعتزلة – وبالطبع منهم الجاحظ – لم يوافقوا ضرار بن عمرو فى تفضيله النبط على العرب، أو تفضيل اختيار الإمام منهم على اختياره من العرب(٨٥).

نتائج الصراع الشعوبى العربى كما رصده الجاحظ

أما عن نتائج الصراع الشعوبى العربى كما رصده الجاحظ فتتلخص فيما أشار إليه الجاحظ مما صدر عن الشعوبية من مؤلفات وأشعار وأقوال تقدح فى العرب وتشكك فى صحة أنسابهم[٨٦]، وتطعن فى مآكلهم وتهون من شأنها[٨٧]، كما تطعن فى قيمهم الخليقة التى عرفوا بها[٨٨].

إلى جانب ما صدر من شعرائها من شعر يتباهى بالموروث الفارسى والحبشى، ويقلل من شأن تاريخ العرب، كما يضاف لهذا ما أشار إليه الجاحظ من نشر شعراء الشعوبية لتيار من الشعر الماجن فى المجتمع لم يعرفه العرب الأوائل فى جزيرتهم[٨٩].

كما لم يسلم نسب الجاحظ من هجمات الشعوبية، لكونه أكبر من دافع عن العروبة ضدها[٩٠].

ولكن هجمات الشعوبية فى كل هذه الاتجاهات قد باءت بالفشل لوقوف الجاحظ وإخوانه من حماة العروبة والإسلام ضدها، وبقيت الجوانب الإيجابية لهذا الصراع شاهدة على تفوق الحق على الباطل وقهره له.

وكان من نتائج هذا الصراع أيضًا – كما صوره الجاحظ – جمع تراث العرب الشعرى والنثرى ليقف أمام اتهامات الشعوبية للعرب بالإفلاس الحضارى بين الأمم – كالطود الشامخ[٩١]، ولعل المجموعات الكثيرة من الخطب والحكم والأمثال العربية المذكورة فى البيان والتبيين كانت من أجل هذا الغرض، وليقول لهم الجاحظ: هذا غيض من فيض هذه الأمة البليغة التى تشككون فى بلاغتها وخطابتها.

كما نتج أيضًا عن هذا الصراع إثبات الجاحظ أن "بيان العرب القديم يتحدى المعاصرة بالقدم .. فى حين يقف بيان الفرس القديم هزيل المعاصرة

يسقطه الزيف وتشجبه الشكوك"[٩٢]؛ لأن الجاحظ قد شكك في مؤلفات الفرس، وقال إنها قد تكون حديثة التأليف ومنحولة على القدماء[٩٣].

كما يحسب من نتائج هذا الصراع نشاط حركة الترجمة عن الأمم المختلفة، وقد عملت هذه المؤلفات المترجمة على اتساع أفق المعرفة، ونشاط حركة الثقافة والعلم[٩٤].

وأيضًا كان من نتائج هذا الصراع ما أكده الجاحظ من وحدة أجناس الأمة الإسلامية، ومحاولته التوفيق بينها، فقد "كان الجاحظ أحد كبار المعبرين عن فكرة وحدة الأمة وتماسك عناصرها وأجناسها، والحفاظ على أصالتها العربية. لأن فكرة وحدة الأمة كانت من صميم رسالة الإسلام، ولأنها تنسجم مع فلسفته فى الإنسان، ولأنها كانت أساس فلسفة الخلافة فى الحكم ، وعلى هذا كان الجاحظ فى معظم ما ألف فى مناقب الأقوام والقبائل والأسر وفضائل المدن يبحث عما يجمع ولا يفرق، ويحاول ألا يعطى قومًا فوق ما يستحقون، ولا يبخس قومًا شيئًا من حقهم"[٩٥].

والجاحظ نفسه يقول فى نبذ المفاخرة بالأنساب لأثرها فى نشوب الخلافات والعداوات: "واحذر خصلة رأيت الناس قد استهانوا بها، وضيعوا النظر فيها، مع اشتمالها على الفساد، وقدحها البغضاء فى القلوب، والعداوة بين الأوداء: المفاخرة بالأنساب ؛ فإنه لم يغلط فيها عاقل، مع اجتماع الإنس جميعًا على الصورة وإقرارهم جميعاً بتفرق الأمور المحمودة والمذمومة من الجمال والدمامة واللؤم والكرم، والجبن والشجاعة، فى كل حين وانتقالهما من أمة إلى أمة، ووجود كل محمود ومذموم فى أهل كل جنس من الآدميين. وهذا غير مدفوع عند الجميع.

فلا تجعلن له من عقلك نصيبًا، ولا من لسانك حظًّا، تسلم بذلك على الناس أجمعين، مع السلامة فى الدين"[٩٦].

وفى رأى الجاحظ أن اختلاف أجناس الأمة الإسلامية ليس معناه أن يظل كل جنس معزولاً عن الآخر فيها، ولكنه رأى أن يتم هذا الانصهار عن طريق وحدة اللغة والدين فيها،كما حدث الائتلاف بين العدنانيين، والقحطانيين قديمًا، فقد تعرَّب العدنانيون ودخلوا داخل دائرة العرب، وكذلك على سائر الأجناس أن تجعل من دائرة الدين الإسلامى الذى ينتمون إليه واللغة العربية التى استبدلوها بلغاتهم الأصلية – طريقًا للائتلاف بينها وجسرًا للوحدة القومية التى تشملهم جميعًا(٩٧).

وأخيرًا فقد كان من نتائج هذا الصراع انتصار الإسلام على الزندقة، وتمثل ذلك النصر فى هذه المؤلفات الكثيرة التى واجهتها، وكان من بينها مؤلفات الجاحظ التى أسكت فيها زعماءها، وأبطل حججهم، وأوضح لكل مبصر خواء فكرهم وسطحيته، وأزاح كل مزاعمهم حول القرآن الكريم والحديث الشريف(٩٨).

- هوامش الفصل الثالث -

(١) ضحى الإسلام، ٦٠/١ .

(٢) الجاحظ حياته وآثاره ، ص ٢٤٢ .

(٣) العصر العباسى الأول ، ص ٦٠٥ .

(٤) النجوم الزاهرة، ٢٧/٣ .

(٥) د. محمد توفيق حسين: مفهوم الإنسانية والعنصرية عند الجاحظ. بغداد، الموسوعة الصغيرة، دار الحرية للطباعة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص١٠٦- ١٠٧.

(٦) د. على أبو ملحم: مقدمة رسائل الجاحظ . الرسائل السياسية، ص ٥١.

(٧) رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون. رسالة مناقب الترك، ٢٩/١ .

(٨) الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامراء، ص ٩٦، والعصر العباسى الثانى، ص٦٠٥، ود . فوزى سعد عيسى: الترسل فى القرن الثالث الهجرى. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩١م، ص٦٩.

(٩) رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون. كتاب فخر السودان على البيضان، ١٨٢/١ - ١٨٣.

(١٠) المصدر السابق، ١٨٣/١.

(١١) المصدر السابق، ١٨٣/١- ١٨٤ .

(١٢) من هؤلاء الباحثين الدكتور خليل جفال فى كتابه: الشعوبية والأدب أبعاد ومضمونات، ص ٣٦ .

(١٣) رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون. كتاب فخر السودان على البيضان، ١ /١٨٥- ١٨٩ .

(١٤) انظر قصيدة سنيح بن رباح وشرح الجاحظ لها فى رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون . كتاب فخر السودان على البيضان، ١٩٠/١- ١٩٢ .

(١٥) المصدر السابق، ١٩٣/١ -١٩٤ .

(١٦) المصدر السابق، ١٩٧/١.

(١٧) المصدر السابق، ١٩٧/١.

(١٨) المصدر السابق، ٢١١/١-٢١٢، ٢١٩.

(١٩) فى حين يرى باحثون أن الشعوبية الفارسية هى أول الشعوبيات ظهورًا على مسرح الأحداث فى الأمة الإسلامية، ومن هؤلاء: إسماعيل العرفى: فى الشعوبية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٢١، ود. إبراهيم العدوى : المجتمع العربى ومناهضة الشعوبية، ص ١٧، ود طه الحاجري: مقال عن أبى عبيدة فى مجلة الكاتب المصرى، مجلد ٢، عدد ٦، مارس ١٩٤٦، ص ٢٧٧ .

(٢٠) المناحى الفلسفية عند الجاحظ ، ص ٢٥ .

(٢١) محمد أبو زهرة : تاريخ الجدل. القاهرة، دار الفكر العربى، لا.ت، ص ٢٢٩ .

(٢٢) العرب والتحدى ، ص ٦١ – ٦٣ .

(٢٣) فى الشعوبية، ص ٢٥، والجذور التاريخية للشعوبية، ص١١.

(٢٤) د. إحسان عباس: ملامح يونانية فى الأدب العربى. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٧م، ص٢٦ ، وبطرس البستانى : أدباء العرب فى الأعصر العباسية حياتهم وآثارهم، نقد آثارهم. بيروت ، دار الجيل، دار مارون عبود، ١٩٧٩م، ٢٦٥/٢ ، وأثين بلاسيوس: بحث عن الحيوان. نشره د. الطاهر أحمد مكى فى كتابه دراسة فى مصادر الأدب. القاهرة، دار المعارف، ط٥، ١٩٨٠م، ص ١٣٣، ومفهوم الإنسانية والعنصرية فى أدب الجاحظ، ص٨٥– ٨٦.

(٢٥) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. من كتابه فى الوكلاء، ١٠٣/٤– ١٠٤.

(٢٦) البيان والتبيين، ٣٨٣/١ .

(٢٧) المصدر السابق، ٥/٢ .

(٢٨) النثر العربى فى مراحل تطوره ، ص ١٥٧ .

(٢٩) المرجع السابق ، ص ١٥١ .

(٣٠) البيان والتبيين، ٥/٣ – ١٢٤.

(٣١) المصدر السابق، ٥/٣ – ٦ .

(٣٢) المصدر السابق، ١٢/٣ .

(٣٣) النثر العربى فى مراحل تطوره ، ص ١٥٦ .

(٣٤) البيان والتبيين، ١٣/٣.

(٣٥) المصدر السابق، ١٤/٣ .

(٣٦) المصدر السابق، ١٥/٣ .

(٣٧) المصدر السابق، ١٦/٣ .

(٣٨) المصدر السابق، ١٧/٣ .

(٣٩) المصدر السابق، ١٧/٣ .

(٤٠) المصدر السابق، ١٧/٣ – ١٨ .

(٤١) المصدر السابق، ١٨/٣ .

(٤٢) المصدر السابق، ١٩/٣ .

(٤٣) الجدل والقص فى النثر العباسى، ص ٩٢ .

(٤٤) البيان والتبيين، ١٩/٣ – ٢٠.

(٤٥) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. رسالة مناقب الترك، ٦١/١ – ٦٢ ، وحدائق الأزاهر ، ص ٢٥٩.

(٤٦) البيان والتبيين، ٣ / ٢٢.

(٤٧) المصدر السابق، ٢٢/٣.

(٤٨) المصدر السابق، ٢٣/٣.

(٤٩) المصدر السابق، ٢٣/٣ .

(٥٠) المصدر السابق، ٢٤/٣ .

(٥١) المصدر السابق، ٢٤/٣ .

(٥٢) الجذور التاريخية للشعوبية ، ص ٩٢.

(٥٣) البيان والتبيين، ٢٨/٣ .

(٥٤) المصدر السابق، ٢٩/٣ .

(٥٥) المصدر السابق، ٢٨/٣ – ٢٩ .

(٥٦) رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. من كتابه فى حجج النبوة، ٢٧٣/٣ – ٢٨٠ .

(٥٧) المصدر السابق، ٣ / ٢٧٣.

(٥٨) ابن سعد: الطبقات الكبرى. بيروت، دار صادر، لا.ت، ٢٩٤/١ .

(٥٩) وصف ابن المقفع العرب بهذه الطبيعة الارتجالية فى فنون بلاغتهم فقال: "أى حكمة تكون أبلغ، أو أحسن أو أغرب، أو أعجب، من غلام بدوى لم ير ريفًا، ولم يشبع من طعام، يستوحش من الكلام، ويفزع من البشر، ويأوى إلى القفر واليرابيع والظباء، وقد خالط الغيلان، وأنس بالجان فإذا قال الشعر وصف ما لم

يره، ولم يغذ به ولم يعرفه، ثم يذكر محاسن الأخلاق ومساويها، ويمدح ويهجو ويذم ويعاتب، ويشبب ويقول ما يكتب عنه، ويروى له، ويبقى عليه"، انظر: زهر الآداب، ٤٠٣/١.

(٦٠) د. وديعة طه النجم: الجاحظ والنقد الأدبى، ص ٥٠ ، وانظر اعتراض محمد أبو زهرة على هذا الرأى فى كتابه: الخطابة أصولها وتاريخها فى أزهى عصورها. القاهرة، دار الفكر العربى، لا.ت، ص ١٨٤، وكذلك إبراهيم سلامة فى كتابه: بلاغة أرسطو بين العرب واليونان دراسة تحليلة – نقدية – تقارنية. مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م، ص٧١، ود. على أبو ملحم فى كتابه: المناحى الفلسفية عند الجاحظ ، ص٢٠٦ ، ودكتور وليد قصاب فى كتابه: التراث النقدى والبلاغى للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجرى. الدوحة، دار الثقافة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٦٦. وكل هؤلاء الباحثين لم يقتنعوا بأن العرب وحدهم كانوا يمتلكون خاصية الارتجال فى الخطابة دون سائر الأمم، بل شككوا فى هذه الملكة لديهم. والحق أن ما نقله الجاحظ من بلاغة العرب فى البيان والتبيين التى صدر أكثرها عن الارتجال يرد على اعتراض هؤلاء المعترضين ، إلى جانب أن هذه الطبيعة فى العرب توافرت لها عوامل مختلفة ذكرناها ولم تتوافر لغيرهم من الأمم وقتذاك ، وقد توجد بعض الأمم التى يتوافر فيها عدد معين ممن عرفوا بسلامة الطبع، وقوة الارتجال، ولكن أن توجد أمة كلها مطبوعة على الارتجال فهذا مالم يتوافر لغير العرب، وهذا ما قصد الجاحظ إليه حين وصفهم بالارتجال دون سائر الأمم؛ ولذا فلا مسوغ لاعتراض من اعترض على قول الجاحظ بتفرد العرب بخصيصة الارتجال فى بلاغتها دون سائر الأمم.

(٦١) البيان والتبيين، ٢٩/٣.

(٦٢) المصدر السابق، ٢٠٣/١.

(٦٣) المصدر السابق، ٣٠/٣ .

(٦٤) المصدر السابق، ٣١/٣ ، وانظر اتفاق ابن قتيبة مع الجاحظ فى هذا الرأى فى كتابه العرب أو الرد على الشعوبية ضمن كتاب رسائل البلغاء ، ص ٣٥٤ .

(٦٥) البيان والتبيين، ٣١/٣ ، ٣٢ ، ٣٥ .

(٦٦) المصدر السابق، ٣٨/٣- ٤٩ .

(٦٧) المصدر السابق، ٣/٥٠ .

(٦٨) المصدر السابق، ٣/٣٩ – ٧٧ .

(٦٩) المصدر السابق، ٣/٨٩، وانظر فى وصف العصا التى كان يخطب النبى وهو متكئ عليها فى الطبقات الكبرى لابن سعد، ١/ ٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٣٧٧.

(٧٠) د. سعيد منصور : النثر العربى فى مراحل تطوره ، ص ١٦٢، وانظر أيضًا د. محمد توفيق حسين: مفهوم الإنسانية والعنصرية فى أدب الجاحظ ، ص٧٨ – ٧٩ ، ومحمد أبو زهرة : الخطابة ، ص ٣٣ – ٣٤ .

(٧١) البيان والتبيين، ٣/٩٠ .

(٧٢) المصدر السابق، ٣/٩٥ ، ٩٦، ٩٧، ٩٨ ، ١٠٦، ١١٠، ١١٣، ١١٤ ، ١١٥ .

(٧٣) المصدر السابق، ٣/١١٧ .

(٧٤) المصدر السابق، ٣/٣٠ .

(٧٥) رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون. من كتابه فى الحاسد والمحسود، ٣/ ٣- ٤ .

(٧٦) البيان والتبيين، ٣/٤٤ .

ونحب أن نشير هنا أننا لو عقدنا مقارنة بين كتاب العصا للجاحظ وكتاب العصا لأسامة بن منقذ، لوجدنا كتاب العصا للجاحظ يشتمل على كل عناصر الفن والجدل والمنطق من أجل إفحام الشعوبية وهدم حصونها ، وليست المادة التى يستعين بها الجاحظ فى هذا الكتاب من شواهد متنوعة من القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر والخبر والمثل إلا وسائل لتأييد قضيته، انظر فى هذا: النثر العربى فى مراحل تطوره، ص١٤٧ – ١٤٨.

أما كتاب العصا لأسامة بن منقذ فهو على حد قول مؤلفه ليس إلا حشدًا للروايات والأشعار والأمثال، وغير ذلك من الشواهد دون أن يكون وراء كل هذا أى قضية من القضايا. انظر: أسامة بن منقذ: كتاب العصا. منشور ضمن نوادر المخطوطات. تحقيق عبد السلام هارون. بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ١/٢٠٣، وبهذا يظهر الجاحظ على أنه كاتب متفرد بين كتاب العرب القدماء فى معالجته لقضايا مجتمعه، وبثه الروح الحية فى تلك النصوص التى ينقلها فى كتبه.

(٧٧) الجذور التاريخية للشعوبية ، ص ١١٨ .

(٧٨) المرجع السابق، ص ١١٨ ، وديلاس أوليرى: الفكر العربى ومكانه فى التاريخ. ترجمة د. تمام حسان. مراجعة د. مصطفى حلمى. القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، لا.ت، ص ١١٧ .

(٧٩) الشهرستانى: الملل والنحل. تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل. دار الفكر، لا.ت، ص ٩١، ولاحظ أن ابن خلدون يخالف ضرارًا فى أن الإمامة – فى رأيه – يجب أن تكون فى أقوى القبائل وأشدها ليستقر أمر الأمة وتخضع باقى القبائل لها، المقدمة. الإسكندرية، دار ابن خلدون، لا.ت، ص ١٣٦ – ١٣٨ .

(٨٠) مروج الذهب، ٢/ ٥٣ .

(٨١) المصدر السابق، ٢/٥٤

(٨٢) الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامراء، ص ٥١.

(٨٣) مروج الذهب، ٤/١٩٥ .

(٨٤) الحيوان، ١/١١ .

(٨٥) الملل والنحل للشهرستانى، ص٩١.

(٨٦) انظر فى هذا: رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. رسالة مناقب الترك، ٣/٧٥ ، وشرح نهج البلاغة، ١١/٦٨– ٧١، والعقد الفريد، ٣/٤١٢ ، والجذور التاريخية للشعوبية، ص٩١، والشعوبية والأدب أبعاد ومضمونات، ص١٥٢، ولاحظ تعليق الجاحظ فى قوله بأن العرب وحدهم هم الذين عنوا بحفظ الأنساب من بين الأمم فى كتابه: البيان والتبيين، ١/١٨٨، ومع هذا فقد رفض المفاخرة بها على سبيل العصبية والتفاخر، انظر: العرب والتحدى ، ص ٧٤ – ٧٥ .

(٨٧) تعرض الجاحظ لمطاعن الشعوبية على مآكل العرب وأطعمتهم ورد عليهم فى المصادر الآتية: البخلاء، ص ٢١٣– ٢٣٧ ، والحيوان، ٢/١٦٠، ورسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. من كتابه فى الأوطان والبلدان، ٤/١١٧ .

(٨٨) انظر فى هذا: البخلاء، ص ٢١٨، ومقدمة البخلاء للدكتور طه الحاجرى، ص٢٨، والجذور التاريخية للشعوبية، ص١١٠– ١١١ .

(٨٩) انظر فى هذا: رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام هارون. كتاب مفاخرة الجوارى والغلمان، ١٠٥/٢ ،١١٣– ١١٥، والحيوان، ١٤٨/١، وثمار القلوب ، ص٥٥٣ – ٥٥٤، وتيارات ثقافية بين العرب والفرس ، ٢٠٧ ، ٢٢٦ ، وول ديورانت: قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران (عصر الإيمان). القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر. الجزء الثانى، المجلد الرابع، ص١٣٦ ، والموشى ، ص١٧٠ – ١٧١، والنثر الفنى فى العصر العباسى الأول اتجاهاته وتطوره، ص٤٠ ، وضحى الإسلام ، ص١٩٣ – ١٩٤ ، وحديث الأربعاء، ٣٢/٢.

(٩٠) د. عبد الفتاح على عفيفى الأسود: الجاحظ وأثره فى النقد الأدبى والنثر الفنى خلال النصف الأول من القرن العشرين، رسالة دكتوراة مخطوطة، نوقشت بكلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص ٥٦ .

(٩١) الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامراء ، ص ١٨٩ ، والجذور التاريخية للشعوبية، ص ٩٥ – ٩٦.

(٩٢) النثر العربى فى مراحل تطوره ، ص ١٦١.

(٩٣) البيان والتبيين، ٢٩/٣.

(٩٤) الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامراء، ص ٣٠٥، والنثر الفنى فى العصر العباسى الأول ، ص ٣٦٧ – ٣٦٨ .

(٩٥) مفهوم الإنسانية والعنصرية عند الجاحظ ، ص١١ .

(٩٦) رسائل الجاحظ . تحقيق عبد السلام هارون. رسالة المعاش والمعاد، ١٢٦/١.

(٩٧) انظر فى هذا: البيان والتبيين، ٢٩١/٣ – ٢٩٢، والفكر السياسى عند المعتزلة ، ص٢٤١– ٢٤٢ ، والجذور التاريخية للشعوبية ، ص ١٠٣ .

(٩٨) انظر ردود الجاحظ على كثير من مسائل الزنادقة حول آيات من القرآن الكريم فى كثير من صفحات كتاب الحيوان على وجه الخصوص، كما أن هناك فصلاً كاملاً حول هذا الموضوع فى كتاب:
THE WORLD – VIEW OF AL-JAHIZ, PP. 170 – 181.

المصادر والمراجع

أولاً : المصـــادر

أسامة بن منقذ:

كتاب العصا. منشور ضمن نوادر المخطوطات. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

الإسفراييني:

التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية من الفرق الهالكين. عنى بعرضه وخرج أحاديثه وعلق حواشيه محمد زاهد بن الحسن الكوثرى، وعنى بنشره وراجع أصله ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسينى. القاهرة، مطبعة الأنوار، ط١، ١٩٤٠ م / ١٣٥٩ هـ.

الأصفهانى:

الأغانى. تحقيق نخبة من المحققين. طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الألوسى البغدادى:

روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى. بيروت، دار إحياء التراث العربى، لا.ت.

البغدادى (أبو منصور عبد القاهر):

- الفرق بين الفرق. حققه محمد محيى الدين عبد الحميد. مكتبة دار التراث، لا.ت.

- الملل والنحل. حققه د. ألبير نصرى نادر. بيروت، دار المشرق، لا.ت.

البقاعى:

نظم الدرر فى تناسق الآيات والسور . تحقيق عبد الرزاق غالب المهدى . بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .

البيضاوى:

تفسير البيضاوى المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تحقيق الشيخ عبد القادر عرفات. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٦ هـ/١٩٩٦م.

ابن تغرى بردى:

- مورد اللطافة فى من ولى السلطنة والخلافة. تحقيق ودراسة وتعليق د. نبيل محمد عبد العزيز أحمد. القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٩٧م.

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. قدَّم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين. بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.

الثعالبى:

ثمار القلوب فى المضاف والمنسوب. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٥ م.

الجاحظ:

- البخلاء. تحقيق د. طه الحاجرى. القاهرة، دار المعارف، ط٩، ١٩٩٠م.

- البرصان والعرجان والعميان والحولان. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، ط١ ، ١٤١٠ هـ/١٩٩٠م.

- البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، لا.ت.

- (كتاب منسوب إليه) - التاج فى أخلاق الملوك. تحقيق أحمد زكى باشا. إيران، فروردين، ط١، ١٣٧٠هـ.

- الحيوان. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الفكر، و دار الجيل، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

- رسائل الجاحظ. تحقيق عبد السلام محمد هارون. القاهرة، مكتبة الخانجى، لا.ت.

– رسائل الجاحظ. الرسائل السياسية. قدم لها وبوبها وشرحها د. على أبو ملحم . بيروت، دار مكتبة الهلال. ط١ ، ١٩٨٧ م .
– رسالة فى مناقب خلفاء بنى العباس. تحقيق د. محمد محمود الـــدروبى. الكويت، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الثانية والعشـــرون، ١٤٢٣هـــ/ ٢٠٠٢م.
– العثمانية. تحقيق عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيـــل، ط١، ١٤١١ هـــ/ ١٩٩١ م.
– فصول مختارة لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. حققها وقـــدَّم لهـــا د. محمد محمود الدروبى. عمان، دار البشير، ط١، ٢٠٠٢م.

ابن الجوزى:

زاد المسير فى علم التفسير. بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤١٧ هـــ/ ١٩٨٧م.

ابن أبى الحديد:

شرح نهج البلاغة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار إحيـــاء الكتـــب العربية. عيسى البابى الحلبى وشركاه، ط٢، ١٣٨٥هـــ/١٩٦٥م.

الحصري القيروانى:

– جمع الجواهر فى الملح والنوادر. حققه وطبعه وفصَّل أبوابـــه ووضـــع فهارسه على محمد البجاوى. بيروت، دار الجيل، ط٢،١٤٠٧هـــ/١٩٨٧م.
– زهر الآداب وثمر الألباب. تحقيق علـــى محمـــد البجـــاوى. القـــاهرة، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابى الحلبى وشركاه، لا. ت.

أبو حيان (محمد بن يوسف):

البحر المحيط فى التفسير. بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيـــع، ١٤١٢ هـــ/١٩٩٢م.

ابن خلدون:

مقدمة ابن خلدون. الإسكندرية، دار ابن خلدون، لا. ت.

الخوارزمى:

المناقب والمثالب. تحقيق إبراهيم صالح. دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩م.

الدميرى:

حياة الحيوان الكبرى. ملتزم الطبع والنشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر، ط٥ ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

الزمخشرى:

ربيع الأبرار ونصوص الأخبار . تحقيق عبد الأمير مهنا . بيروت ، مؤسسة الأعلمى / ط١ ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .

ابن سعد:

الطبقات الكبرى. بيروت، دار صادر، لا.ت.

أبو السعود محمد بن العماوى:

تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم . بيروت ، دار إحياء التراث العربى ، ط٢ ، ١٤١١ هـ/١٩٩٠ م.

السيوطى:

تاريخ الخلفاء. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. القاهرة، لا.ت.

الشنقيطى:

أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن. الرياض، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣م.

الشهرستانى:

الملل والنحل. تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل . دار الفكر ، لا .ت .

الصفدى:

الوافى بالوفيات. تحقيق نخبة من المحققين .الناشـــر دار فرانـــز شـــتاينر بفيسبادن.

الطبرى:

– تاريخ الطبرى (تاريخ الأمم والملوك). تحقيق محمـــد أبـــو الفضـــل إبراهيم . القاهرة ، دار المعارف ، ط٤ ، ١٩٧٩ م .

– تفسير الطبرى، جامع البيان عن تأويل آى القرآن. القاهرة. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البـــابي الحلبـــى وأولاده بمصـــر، ط٣، ١٣٨٨ هـــ/ ١٩٦٨م.

أبو الطيب عبد الواحد بن على اللغوى الحلبى:

مراتب النحويين. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة، مكتبة نهضـــة مصر ومطبعتها، لا. ت.

ابن عاصم الأندلسى:

حدائق الأزاهر. تحقيق د. عفيف عبد الرحمن. بيروت، دار المسيرة، ط١، ١٤٠٧هـــ/١٩٨٧م.

ابن عبد ربه:

العقد الفريد. تحقيق أحمد أمين وآخرين. القاهرة، لجنة التأليف والترجمـــة والنشر، ١٣٨٩هـــ / ١٩٦٩م .

عبد الرحيم بن أحمد العباسى:

معاهد التنصيص على شواهد التلخيص. حققه وعلق حواشيه محمد محيى الدين عبد الحميد. القاهرة مطبعة السعادة، ١٣٦٧هـــ/ ١٩٤٧ م.

عبد القاهر الجرجانى:

الرسالة الشافية فى وجوه الإعجاز، المنشورة مع دلائل الإعجاز. تحقيـــق محمود محمد شاكر. القاهرة، الخانجى.

عبد الكريم النهشلى:

اختيار الممتع فى علم الشعر وعمله. تحقيق د. محمود شاكر القطان. القاهرة، دار المعارف، ط١، ١٩٨٣م .

أبو عبيدة معمر بن المثنى:

- العقفة والبررة. منشور ضمن كتاب: نوادر المخطوطات. تحقيق وتقديم عبد السلام محمد هارون. بيروت، دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

مجاز القرآن. تحقيق د. محمد فؤاد سزكين. القاهرة، مكتبة الخانجى، لا.ت.

ابن قتيبة:

- العرب أو الرد على الشعوبية، كتاب منشور ضمن كتاب رسائل البلغاء. جمع وتحقيق محمد كرد على. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٣، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

- عيون الأخبار. بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

القرطبى:

تفسير القرطبى. دار الريان للتراث.

المرتضى (الشريف):

أمالى المرتضى. غرر الفوائد ودُرر القلائد . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابى الحلبى وشركاه .

المسعودى:

- مروج الذهب ومعادن الجوهر. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. بيروت، المكتبة الإسلامية، لا.ت.

المطهر بن طاهر المقدسى:

البدء والتأريخ. اعتنى بنشره وترجمته كلمان هوار. طبعة بايز، ١٨٩٩ م.

ابن منظور:

لسان العرب. تحقيق عبد الله على الكبير، و محمد أحمد حسب الله، وهاشم محمد الشاذلى. القاهرة، دار المعارف، لا.ت.

ابن النديم:

– الفهرست. تحقيق رضا تجدّد. بيروت، دار المسيرة ، ط٣، ١٩٨٨م.

– الفهرست. بيروت، دار المعرفة ، لا.ت.

ياقوت الحموى:

معجم الأدباء، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب. تحقيق د. إحسان عباس. بيروت، دار الغرب الإسلامى، ط١، ١٩٩٣م.

ثانياً: المراجـــع

إبراهيم أحمد العدوى (دكتور):

المجتمع العربى ومناهضة الشـــعوبية. القـــاهرة، مكتبـــة نهضـــة مصـــر ومطبعتها بالفجالة، ١٩٦١م.

إبراهيم سلامة (دكتور):

بلاغة أرسطو بين العرب واليونان دراسة تحليلية – نقدية – تقارنية. مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٣٧١هـــ/١٩٥٢م .

أثين بلاسيوس:

بحث عن الحيوان. نشره د. الطاهر أحمد مكى فى كتابـــه: دراســـة فـــى مصادر الأدب. القاهرة، دار المعارف، ط٥، ١٩٨٠م.

إحسان عباس (دكتور):

– ملامح يونانية فى الأدب العربى. بيروت، المؤسسة العربية للدراســـات والنشر، ط٢، ١٩٩٣م.

أحمد أمين:

ضحى الإسلام. القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ط١٠. لا.ت.

أحمد محمد الحوفى (دكتور):

- تيارات ثقافية بين العرب والفرس. القاهرة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط٣، لا.ت.

- الجاحظ. من سلسلة دراسات فى الإسلام. العدد ٣٨ السنة الرابعة، ١٥ من جمادى الأولى١٣٨٤هـ ،٢١ من سبتمبر ١٩٦٤م. يصدر عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مطابع شركة الإعلانات الشرقية.

إسماعيل العرفى:

فى الشعوبية. ١٣٩٩ هـ/١٩٧٩م.

بطرس البستانى:

أدباء العرب فى الأعصر العباسية، حياتهم، آثارهم، نقد آثارهم. بيروت، دار الجيل، دار مارون عبود، ١٩٧٩ م.

جميل جبر (دكتور):

- الجاحظ فى حياته وأدبه وفكره. بيروت، دار الكتب اللبنانية للطباعة والنشر، ١٩٦٨م.

- الجاحظ ومجتمع عصره. بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٥٨م.

حسن إبراهيم حسن:

تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى (العصر العباسى الأول). مكتبة النهضة المصرية، ط٢، ١٩٤٨م.

حسن السندوبى:

أدب الجاحظ. القاهرة، المطبعة الرحمانية بمصر،١٣٥٠ هـ/١٩٣١م.

حنا الفاخورى (الأب):

- تاريخ الأدب العربى. المطبعة البولسية، لا. ت.

- الجاحظ. القاهرة، دار المعارف ، ط٦، سلسلة نوابغ الفكر العربى، ١٩٨٠م.

خليل جفال (دكتور):

الشعوبية والأدب أبعاد ومضمونات. بيروت، دار النضال، ط١، ١٩٨٦م.

ديلاس أوليرى:

الفكر العربى ومكانه فى التاريخ. ترجمة د. تمام حسان. مراجعة د. مصطفى حلمى. القاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومى. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، لا.ت.

زاهية قدورة (دكتور):

الشعوبية وأثرها الاجتماعى والسياسى فى الحياة الإسلامية فى العصر العباسى الأول. بيروت، دار الكتاب اللبنانى، ط١، ١٩٧٢م.

سعيد حسين منصور (دكتور):

- دراسات فى النثر العربى. الإسكندرية، ١٩٨٥م.

- النثر العربى فى مراحل تطوره حتى نهاية القرن الثالث الهجرى. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

سميرة مختار الليثى:

الزندقة والشعوبية وانتصار الإسلام والعروبة عليهما . القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٨م .

شارل بللا (دكتور):

الجاحظ فى البصرة وبغداد وسامرَّاء. ترجمة د. إبراهيم الكيلانى. دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦١م.

شفيق جبرى (دكتور):

الجاحظ معلم العقل و الأدب، دار المعارف بمصر، لا.ت.

شوقى ضيف (دكتور):

- العصر العباسى الأول. القاهرة، دار المعارف، ط٦.

- العصر العباسى الثانى. القاهرة، دار المعارف، ط٢٦، ١٩٨٦م.

- الفن ومذاهبه فى النثر العربى. القاهرة، دار المعارف، ط١٠، ١٩٨٣م.

صموئيل عبد الشهيد:

الروح العلمية عند الجاحظ فى كتاب الحيوان. بيروت، دار الكتاب اللبنانى، ط١، ١٩٧٥م.

طه الحاجرى (دكتور):

الجاحظ حياته وآثاره. القاهرة، دار المعارف، لا.ت.

طه حسين (دكتور):

-حديث الأربعاء. القاهرة، دار المعارف، ط١٥.

عبد الحكيم بلبع (دكتور):

- النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه. القاهرة، لجنة البيان العربى، مطبعة الرسالة، ١٩٦٩م.

عبد السلام المسدّى (دكتور):

قراءات مع الشابى والمتنبى والجاحظ وابن خلدون . دار سعاد الصباح، ١٩٩٣ م .

عبد العزيز الدورى:

الجذور التاريخية للشعوبية. بيروت، دار الطليعة، ط١، ١٩٦٢ م.

عبد الله التطاوى (دكتور):

- الجدل والقص فى النثر العباسى. القاهرة ، كلية الآداب، جامعة القاهرة، دار الثقافة والنشر والتوزيع، لا. ت.

– مستويات الحوار فى فنون النثر العباسى. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٥م.

عبد المحسن عاطف سلام (دكتور):

الثورة البابكية وأثرها فى الأدب العربى. دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م.

على أبو ملحم (دكتور):

–الفلسفة مشكلات وحلول. بيروت، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٤ هـ/١٩٩٤م.

– المناحى الفلسفية عند الجاحظ. بيروت، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط٢، ١٩٨٨م.

على شلق (دكتور):

أبو نواس بين التخطى والالتزام. بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢م.

فاروق سعد (دكتور):

مع بخلاء الجاحظ. دراسة تحليلية مقارنة مع منتخبات. بيروت، منشورات دار الآفاق الجديدة، ط٤، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

فوزى سعد عيسى (دكتور):

الترسل فى القرن الثالث الهجرى. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩١م.

فوزى عطوى (دكتور):

الجاحظ دائرة معارف عصره. بيروت، ط١، ١٩٨٩م.

فيكتور شلحت اليسوعى (الأب):

النزعة الكلامية فى أسلوب الجاحظ. دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م.

كارل بروكلمان:

تاريخ الأدب العربى. ترجمة نخبة من المحققين. القاهرة، دار المعارف.

كاظم حطيط (دكتور):

مع ابن قتيبة فى مسار الصراع العربى الشعوبى. بيروت ، دار الهادى، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

محمد أبو زهرة:

- تاريخ الجدل. القاهرة، دار الفكر العربى، لا.ت.

- تاريخ المذاهب الإسلامية فى السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية . القاهرة، دار الفكر العربى، لا.ت.

- الخطابة، أصولها وتاريخها فى أزهى عصورها. القاهرة، دار الفكر العربى، لا. ت.

محمد بديع شريف (دكتور):

الصراع بين الموالى والعرب "وهو بحث فى حركة الموالى ونتائجها فى الخلافة الشرقية". دار الكتاب العربى بمصر ، ١٩٥٤ م.

محمد توفيق حسين (دكتور):

مفهوم الإنسانية والعنصرية عند الجاحظ. بغداد، الموسوعة الصغيرة، دار الحرية للطباعة، ١٤٠٥ هـ/١٩٨٥م.

محمد زغلول سلام (دكتور):

- دراسات فى الأدب العربى، العصر العباسى. منشأة المعارف بالإسكندرية، لا.ت.

محمد الطيب النجار:

الموالى فى العصر الأموى. دار النيل للطباعة، ط١، ١٣٦٨ هـ/١٩٤٩م.

محمد عبد الغنى الشيخ (دكتور):

النثر الفنى فى العصر العباسى الأول اتجاهاته وتطوره. الدار العربية للكتاب، ١٩٨٨م.

محمد عبد المنعم خفاجى (دكتور):

- أبو عثمان الجاحظ. بيروت، دار الكتاب اللبنانى، ط١، ١٩٧٣م.

- الأدب العربى وتاريخه فى العصرين الأموى والعباسى. بيروت، دار الجيل، ١٤١٠ هـ/١٩٩٠م.

محمد عمارة (دكتور):

- العرب والتحدى. كتاب الهلال، ديسمبر ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٢م.

محمد كرد على:

- أمراء البيان. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م.

محمد مصطفى هدارة (دكتور):

- اتجاهات الشعر العربى فى القرن الثانى الهجرى. دار المعرفة الجامعية، لا.ت.

محمد نبيه حجاب (دكتور):

- الصراع الأدبى بين العرب والعجم. القاهرة، المكتبة الثقافية، سبتمبر ١٩٦٣ م .

- مظاهر الشعوبية فى الأدب العربى حتى نهاية القرن الثالث الهجرى . مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١م.

مصطفى الشكعة (دكتور):

- مناهج التأليف عند العلماء العرب، قسم الأدب. بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٢م.

مصطفى الصاوى الجوينى (دكتور):

مدارس التفسير القرآنى. الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٥م.

مونتغمرى وات:

الفكر السياسى فى الإسلام والمفاهيم الأساسية. ترجمة صبحى حديدى. بيروت، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، لا.ت.

ميشال عاصى (دكتور):

مفاهيم الجمالية والنقد فى أدب الجاحظ. بيروت، مؤسسة نوفل، ط٢، ١٩٨١م.

نجاح محسن (دكتور):

الفكر السياسى عند المعتزلة. القاهرة، دار المعارف.

نكلسن:

تاريخ الأدب العباسى. ترجمة صفاء خلوصى. بغداد، المكتبة الأهلية.

هاملتون جب:

دراسات فى حضارة الإسلام. ترجمة د. إحسان عباس، و د. محمد يوسف نجم، و د. محمد زيدان. دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٧٩م.

وديعة طه النجم (دكتور):

- الجاحظ والحاضرة العباسية. بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٦٥م.
- الجاحظ والنقد الأدبى. الكويت، حوليات كلية الآداب، الحولية العاشرة، الرسالة التاسعة والخمسون، ١٤٠٩ - ١٤١٠هـ / ١٩٨٨- ١٩٨٩م.

ول . ديورانت:

قصة الحضارة. ترجمة محمد بدران (عصر الإيمان). الجزء الثانى، المجلد الرابع. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، لا.ت.

وليد قصاب (دكتور):

التراث النقدى والبلاغى للمعتزلة حتى نهاية القرن السادس الهجرى. الدوحة، دار الثقافة، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

ثالثاً : المجلات والدوريات والموسوعات

دائرة المعارف الإسلامية. النسخة العربية. إعداد وتحرير: إبراهيم زكى خورشيد، وأحمد الشنتناوى، وعبد الحميد يونس. كتاب الشعب، ط٢، ١٩٦٩م.

ضياء الصديقى (دكتور):

فنية القصة فى كتاب البخلاء والجاحظ. عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الرابع، ١٩٩٠م.

طه الحاجرى (دكتور):

أبو عبيدة . مجلة الكاتب المصرى. مجلد ٢، عدد ٦، مارس ١٩٤٦ م .

رابعاً : الرسائل الجامعية المخطوطة

عبد الفتاح على عفيفى الأسود (دكتور):

الجاحظ وأثره فى النقد الأدبى والنثر الفنى خلال النصف الأول من القرن العشرين (رسالة دكتوراة مخطوطة). إشراف أ. د. عبد الحميد طه حميدة. نوقشت بقسم الأدب والنقد بكلية اللغة العربية. جامعة الأزهر، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

على محمد السيد خليفة (دكتور):

- أدب الجاحظ فى صلته بتيارات عصره السياسية. رسالة دكتوراة مخطوطة، نوقشت بقسم اللغة العربية، بكلية الآداب، بجامعة الإسكندرية، تحت إشراف الأستاذ الدكتور/سعيد حسين منصور، سنة ٢٠٠٤م.

- فن المناظرة حول الحيوان فى أدب الجاحظ.رسالة ماجستير مخطوطة. إشراف أ. د. سعيد حسين منصور. نوقشت بقسم اللغة العربيـــة بكليـــة الآداب، بجامعة الإسكندرية، ١٤٢٠هـــ/ ١٩٩٩م.

خامساً : المراجع الأجنبية

DR . SAID H . MANSUR :
THE WORD – VIEW OF AL – JAHIZ IN K. AL – HAYAWAN (ALEXANDRIA, DAR AL MAAREF, 76 – 1977) .
ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM NEW EDITION, LEIDEN, 1971 .